رائحة الخشب

مجموعة قصصية

محمد سامي البوهي



الكتاب : رائحة الخشب (مجموعة قصصية)

المؤلف : محمد سامي البوهي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٥٩٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 38 - 8

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)-٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

رائحة الخشب

محمد سامي البوهي

إهداء

إلى روح خالي «أيمن الشرقاوي»

إلى أبي، وأمي، وإخوتي

إلى زوجتي وابنتي حنين

أصابع أبي

(١)

بحيرة ثلجية

وقف أمام البحيرة الثلجية، أراد أن يحدد موقعه، فضلّله البياض المنتشر، يعلم جيدًا مكان البحيرة، لكنه بات لا يعلم أين الشاطئ.

(٢)

أصابع أبي

صحبني أبي لمحل عمله بأحد البنوك، قضى وقته بين عدّ خصلات النقود، وتدوين الأرقام، عدنا إلى المنزل، ألقاه التعب على سريره بنوم عميق، تظاهرت بالنوم جواره، ثم أخذت في عد أصابعه.

(٣)

قاتل الموتى

سار مختالاً بحصانه بين الجثث المنتشرة، لم يُبق على روحٍ واحدة داخل جسدها، قفز فوق ربوة نتأت عن الأرض الحمراء، رفع سيفه، وصاح : هااااااا، أسرع ناحية الجبل ليقضي على من رد عليه صياحه .



الحياة أسفل الطاولة

عندما ألقت إليه بابتسامتها، أيقن أن هذه الضربات المتفرقة تأتيه عن عمد، تجاهلها بإدارة بصره نحو أوراقه المستلقية على طاولة الاجتماعات، قلص قدمه بعد أن تلقى ضربة أخرى من مقدمة حذائها المدبب، افتعل التمعن بأرقامه المشبعة بالربح الوفير، كانت دفَّة المفاوضات تتأرجح بين يديه، يحرك بها المجلس كيفما شاءت له رياحه الصيفية، كقبطان ماهر يتقن اللعب بتلابيب المناورات التجارية، كانت نظرات المنافسين تنزح من بحر العجائب دفقات الإعجاب نحوه، كلما ابتسم بانت لهم وسامته، وحينما يقطب يهيبهم وقاره، دائرة الحديث تنغلق عنده بالتودد الدائم، لكن في كل مرة كان ذكاؤه المعهود يفرض عليهم سلطانه، لا يخطئ، لا تترجرج أنفاسه، تسير كلماته كما الخط المستقيم (أنت مكسب كبير لشركتك) كان يبدي شكره المتوازن كلما كركر أحدهم بهذه الجملة، ثم يواصل سريعًا الإمساك بالدفة، حنكة التجار تحاول أن تتخلله، تبحث لنفسها عن ثقب أسود تستطيع أن تنفذ منه إليه، لكنه مازال صامدًا.

حوار الضربات يكرر نفسه من أسفل الطاولة، حدق في وجهها الغض المتموج مع الأضواء الساطعة، شعر بهواجس الألوان تنعجن بأرقامه الصارمة؛ فابتسمَ حينما كانت تأتيه أصوات من بين أكوام الزمن :
إنها عصا أبي تحاصرني بكل مكان، مازلتُ أبحثُ بين أشياء المنزل عن مخبأ يؤويني... هنا تحت الكرسي؟ لا لا... سبق وعثر عليَّ هناك، خلف باب غرفتي؟ لا لا... سبق ودق رأسي هناك، نعم هي الطاولة... الطاااولة، هرعت أسفل الطاولة بجسدي الصغير (اخرج يا جبان، تعال هنا أيها الفأر) فشلت محاولات أبي من الوصول إليّ... أبتسم..

ççç

– أين ذهبت هذه الملعونة هذا النهار؟
– أكيد خبأتها «ماما» من طغياننا الشيطاني.
– أين خبأتها؟!!
– ....
– أنت، ابحث عنها فوق سطح المنزل.
– ....
– وأنتِ، ابحثي عنها بالغرف.
– ....

– أما أنا فسأبحث عنها بكل مكان.

استغاثت بموائها بعد أن جذبتُ ذيلها بقوة من أسفل الطاولة.. أبتسم.

ꕥꕥꕥ

اليوم سأصعد للقمر، جهزت كل معداتي وأجهزتي، تأكدت تمامًا من صيانة المركبة الفضائية، الوقت حان للانطلاق، (دن دن دن دجن دجننننن ششششششش)، انطلقت السفينة بنجاح، أصافح السحب، النجوم، السماء الأولى، الثانية، الملائكة، الشمس، وأخيرًا الهبوط على سطح القمر، الآن الدنيا كلها ملكي وحدي، أستطيع أن أرى كل شيء من هنا، وأتحكم في كل شيء، الآن أنا أكبر مما يجب... لكن، مَنْ هؤلاء القادمون من بعيد؟ معقول أنهم كائنات الفضاء؟ لابد وأن أهبط، أختبئ، أن أهرب، لكن أين؟ لا يوجد أي شيء أستتر خلفه، الفضاء شاسع، الفراغ يحاصرني، يقتربون... إنهم قادمون... سيقبضون عليَّ بكل تأكيد، أريد الهبوط إلى الأرض، بدت ملامحهم الغريبة: أشكالهم مخيفة، أعينهم من زجاج أحمر، أنوفهم معقوفة، أرجلهم، أياديهم...

– لا تقترب مني أيها الأحمق.

– مَنْ أنت أيها الغازي الصغير؟

– أأأنا...؟

سحبتني يد أمي من أسفل الطاولة لتناول العشاء... أبتسم....

۞۞۞

– زلزاااااااال

كان أبي يلملمنا عندما انطلقت هذه الكلمة، مع رقصات الأرض من تحت أقدامنا، كانت كل الأشياء من حولنا تهتز... تتساقط، الثريات، التابلوهات، المزهريات، الحوائط تتعرى... تتمزق، صرخات أمي، نداءات أبي، جدي، جدتي: (هيا بسرعة، اخرجوا كلكم، يا رب يا ستار)، انطفأت الأنوار، أختي وفاء... أين أختي وفاء؟ إنها مازالت نائمة. (ماما، بابا...؟؟؟؟) السقوط يدلي بصوته من الشارع، أعتقد أن العمارة التي أمامنا انهارت بالكامل، يضيق الخناق، الغبار... لا أستطيع التنفس، أين الباب؟ لقد سقطت حوائط الصالة الرئيسية، انغلق المخرج، لقد علقنا، لن نستطيع الخروج (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله) صوت أبي يصارع صوت الانهيار:

– الطاولة، هيا تجمعوا أسفل الطاولة.

سقط كل شيء، صمت كل شيء، إلا صوت أنفاسنا اللاهثة، وتمتمات جدي بآيات قرآنية ... أتنهدُ...

◊◊◊

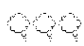
تلقى ضربة جديدة وسط اللغط القادم كهجمات النحل الطنان، نفض عن رأسه الغبار، وعاد لغرفة القيادة، أحكم قبضته على الدفة، ابتسمت له بعد أن اطمأنت بأنه يبادلها الابتسامات، نظم أنفاسه من جديد، تناول جرعة مياه من الكوب أمامه، هندم سوار قميصه، نظر إليهم بهدوئه، وأعلن لهم عن إصرار شركته على موقفها التجاري تجاه شركاتهم، بينما يستعد للانصراف من بين براثن الصمت المحلق فوق رؤوسهم، شعر بيدها تمتد إليه من أسفل الطاولة بورقة صغيرة عن يمينه، ويد أخرى تلوح له «بشيك» مالي عن يساره......



عودة حافلة

كانت تنتظر قدومه كل يوم حتى الانسدال، لم تشعر يومًا بيأس تسللها، اليقين يرسم لها دائمًا طريقا للعودة، مزجت بصرها بأشجار الزيتون الوارفة، أرسلت الأمل داخلها، عله يخرج من بينها مزيحًا أغصانها كاشفا عن وجهه، غاصت أصابعها في رأس ابنتها «فاطمة»، تداعب خصلات شعرها المجدول، تتساءل عنه كثيرًا، عن صورته على الجدار، متى رحل؟ متى سيعود؟ هل كان يداعبها في مهدها؟ أكيد قد تبدل وجهه كثيرا، تتراكم الأسئلة فوق جسدها الرقيق، تشعرها بالدفء، تنام...

الأم تنتظر المؤذن... تصلي، تدعو... تتوسل... تبكي... تنام في أحضان الأمل... كست جسدها بثياب المدرسة، جدلت ضفائرها بعد أن نقضتها بالأمس، ناولتها حقيبتها الصغيرة، قبلتها بين عينيها، أكدت عليها التقام الطعام؛ فتركت لها علامات الطاعة قبل الرحيل، غابت مع الصغار وسط بقايا منازل الشارع المظلم.



وحيدة بين أطلالها المتناثرة في كل مكان، هنا كان يجلس لتناول الطعام، بهذا الركن كان يصلي، على هذا الكرسي قص عليها همومه وأفراحه، جلبابه الأبيض يتدلى هناك، ينتظره ليطوف به طرقات المدينة، رائحته تملأ المكان، عشقها الزمن فأبقاها على حالها، وجهه يقف أمامها كظل شع من جسدها النحيل، سنوات التهمت فراشه الدافئ فصار لهبًا يكويها، عاد الخوف يدُكُّ قلعتها، نظرت نحو الباب القديم، فغزت آذانها طرقات... وطرقات...وطرقات، سقط الباب... تهشمت عظامه، انتزعوه من راحة يومه الشاق، جرجروه وسط توسلات الرضيعة المفزوعة، تمسكت بأطراف جلبابه، تمزق... تمزق جسدها تحت وخزات البنادق... قاوم أغلالهم... ضربوه على رأسه... أُغشيَ عليه، داسوا أشلاء الباب المتناثرة بأحذيتهم الضخمة، تركوها دون باب يسترها، يداري عورتها، تعازي الجيران تجمعت حولها، الكل يواسيها بما وصلت إليه من حال، لملموا هشيم الباب، أقاموه كما كان بين الجدار، عادت إلى جروحه المندملة، طرقات... وطرقات... وطرقات، عناكب الخوف شدت خيوطها حول رقبتها، أسرعت بفتحه، كان رجلًا ملثمًا يحمل بين عينيه ملامح الحياة، طمأنها...

— لا تخافي. لست منهم.

— من أنت، وماذا تريد؟

- أنا بشير خير.

- خيرًا ؟!

- غدًا سيأتي زوجك.

- زوجي؟!

- سيعود.

- سيعود. كيف؟!

- غدًا عند الغروب، ستقف الحافلة على الجسر.

بين الشك واليقين تتهاوى، الأمل القابع خلف أشجار الزيتون يزحف نحوها، تذكرت «فاطمة» ابنتها، وتساؤلاتها التي لا تخمد... هل آن لها أن تهدأ، وتستكين؟ يعود الشك إليها، تنفضه عنها، رائحته تزيد انتشارها بالمكان، جلبابه الأبيض يرفرف فوق المسمار، أشياء المنزل ترقص فرحًا من حولها، تمدد الخبر للجيران، التهاني تنساب، استعارت بعضًا من الأواني الفاخرة، ستصنع له أفضل ما يحب من طعام، تُعرض مساعدات الجيران، البيت يمتلئ بالنساء، يصنعن «الكعك» المنقوش، تتقافز «فاطمة» مع أطفال الحي، يمتلئ صدرها الصغير بشوق اللقاء، من تنتظره سوف يعود، أخيرًا ستتحرك الصورة المتجمدة بخيالها المكنون.

❀❀❀

الأم...، «فاطمة»، والجيران، عند الجسر وقت الغروب في انتظار الحافلة، تضيق الأنظار مع أطراف الطريق المستقيم، ارتشفت الشمس أشعتها الباقية، وتعلق بينهم بعض من ضوء خافت، انغلقت نهايات الطريق بالظلام، الهمهمات تتناثر: (سيعود...لا تقلقي...الطريق طويل... الصبر أجمل ما في الوجود).

وكان ضوء الحافلة المنبعث من بعيد هو أجمل ما رأت في الوجود، ينبوعان من النور انفجرا وسط الظلمة القاحلة، اقتربا نحوها مع اقتراب التهنئات من آذانها، كبرت الملامح وليدة الطريق، اقترب قلبها من الحافلة، كاد يقفز داخلها، الترقب ينتظر على جوانب الطريق، استقرت العجلات على الجسر الموعود، أطراف الأصابع وضلالات الوجوه تبرز بين قضبان النوافذ، انفتح الباب... ارتفعت الأعناق، القلوب تنبض كطبول الحروب، بدأ الخروج، الوجه تلو الوجه، تغيرت الملامح القديمة، صارت الأجساد مسحة لحم تكسو العظام، الفرح خالطه النحيب... العناق، صوت اللقاء يتطاير،تساؤلات «فاطمة» تنهمر: (هل سيعود؟ متى سيعود؟) وسط الوجوه تبحث عن صورة الجدار، الأم أصابها صمت الذهول، الشك يداعبها، اليقين يضيء وينطفئ، مازالت الحافلة تلقي بالوجوه الشاحبة، ارتمى عليها... تعرف عليها... لم تعرفه، دققت في ملامحه، أشباه خاوية من أصل مضى، قبلها، عانقها، تساءل عن «فاطمة»، أخذها بين يديه، بكى

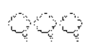
على صدرها المرتعش بعد أن أزاحت عن جسدها التساؤلات، أمسك براحتها الصغيرة، عرج مع أمها والجيران ناحية المنزل، مرارة الحرمان تودعه، فرحة اللقاء ترحب به، تداخل وأشجار الزيتون الوارفة، أزاح أغصانها كاشفًا عن أعمدة الدخان المتصاعدة من بقايا منزله المهدوم.



الموت ضحكًا

عاش معي عشرة أشهر، كان رجلًا لطيفا جدًا، أحببت مجالسته ليلًا حيث يحلو السهر، نحتسي معا كؤوسًا من الشراب المنكّه بالنعناع، والمسكَّر بطعم البرتقال، ثم أبتلع بعض الأقراص البلاستيكية، التي ترغم جسدي على ملاحقة الأجساد، فتجعله يطير عبر الأزمنة، والأمكنة، فيحلق بخياشيم الأحرف ليتنفس من صلب الحياة...

عندما أذكر للمختصين أنني أستضيف هذا الرجل في رئتي اليسرى، بالفص العلوي، جوار القلب تمامًا، تتسع أحداقهم، وتشرئب أعناقهم.. لأن الماثل أمامهم هو إنسان ميت لا محالة، فأعكف على لملمة نظرات الشفقة من أعينهم، ثم أدهسها بحذائي...



مازلت أذكر هذا الرجل الذي قابلَتْ آهاته غرفتي بمستشفى «عين شمس التخصصي» عندما زارني ليلًا وربَّت على كتفي، قائلًا لي بملء فمه: (لا تخف، ستعيش)، ثم تركني وانصرف دون أن ينبس بكلمة واحدة...
حزنت كثيرًا عندما فوجئت بالصباح بأن سريره قد كساه البياض...
في تلك الليلة، كان المستشفى هادئًا إلا من فخامته التي بانت أمامي بكل تفاصيلها، أرضية خشبية لامعة، جدران نظيفة، وسقف ممتلئ بالمصابيح الصغيرة، تلفاز متوهج بالزاوية البعيدة، وزرٌّ يعتليني للاستدعاء الطارئ..

حاولت مقاومة الفراش للوقوف على قدمي، لكن باءت كل محاولاتي بالفشل، لم أيأس من منح جسدي وهم الحراك، مددت يدي حيث انتهت الأنامل عند أطراف كتاب وضعه أخي على الطاولة جواري، كان كتابًا قد أهدته لي زميلتي «شذى» عندما أتت لزيارتي صباحًا، تفحصت العنوان، فشعرت بسعادة غامرة، عندما اطمأننت أن قدرتي على القراءة مازالت بخير «أمريكا الضاحكة زمان– مصطفى أمين»، أعدت قراءة العنوان بصوت مسموع، مرات ومرات، ثم نظرت للوجوه «الكاريكاتورية» الضاحكة المرسومة على الغلاف، انفجرت ضحكًا، فداهمني السعال...
تراءت أمامي أشكالٌ هلامية، لم أشعر بشيء بعدها، فقدت الأضواء المنتشرة بالسقف، وبريق الأرضية الخشبية، ووهج التلفاز ووووو... عندما أفقت علمت أن ضيفي يكره الضحك، لعنته... ولعنت رئتي اليسرى... ولعنت أمريكا، و«شذى»، ابتسمت الدكتورة «وفاء» للعناتي التي أعادتني للحياة...

٩٩٩

طلبت من أخي دفترًا فارغًا، وقلمًا، لكنه تهرب من طلبي، لا أعلم لِمَ؟ فسألت نفسي هل يكره ضيفي الأوراق والأقلام؟ استفزني السؤال ، حتى أني صرخت في وجه أمي ليلًا... بأن أفكاري تصارعني، أريد ورقة وقلمًا.. (ورقة وقلم يا عالم)، ربتت بيدها الحانية على صدري، وغابت عني... بالصباح ضغطت زِرَّ الاستدعاء الطارئ، طلبت من الممرضة أن تزيح الستائر، وتفتح النوافذ، وتضيء الأنوار، وتشعل التلفاز، وتحضر عمال النظافة لتلميع الأرضية، وتبديل الملاءات... فقالت مستغربة: (طيب طيب... على مهلك...كل ده؟!).

السابعة مساءً...

عن يميني أبي، وأخي، وخالي، وعن يساري أصدقائي؛ نبيل، ووليد، وياسر، تنحدر أعناقهم لركن التلفاز، كانت المباراة النهائية لكأس الأمم الإفريقية، والبداية مبشرة، بهدف لصالح منتخبنا الوطني سجله اللاعب «أحمد حسن» في مرمى منتخب «جنوب إفريقيا»، كنت أتابع في شغف منتظرًا النصر، ومن بين الصيحات، والضحكات، وأنباء الفرح، تسربت آلامي، لكن سرعان ما تناسيتها حينما اقشعر جسدي على وقع مراسم الفوز، والأغاني الوطنية.

التاسعة مساءً...

انتهت الزيارة...

رحلوا جميعًا، وعاد الصمت ...

التقطت الكتاب بأطراف أناملي، (أمريكا الضاحكة زمان)، بصوت مسموع كنت أردد، وقعت عيني من جديد على صور الغلاف فابتلعت ضحكاتي، أخذت أقلب الصفحات، صفحة تلو الصفحة، لا جديد، فأمريكا هي أمريكا، شعرت بملل، أخذت في عدِّ المصابيح المنتشرة بسقف الغرفة، توقفت لقضم أظافري، أخذت في عدِّ المصابيح من جديد، يبدو أني أخطأت العد، لعنت المصابيح، ولعنت أمريكا، واعتذرت لرئتي اليسرى، وصديقتي «شذى»، ثم حصرت الكتاب بين يدي، تمعنت في الوجوه «الكاريكاتورية» على الغلاف، لم استطع التماسك، انفجرت ضحكًا، وأنا أضغط زِرَّ الاستدعاء الطارئ.

رائحة الخشب

كنت أرسم بقلمي الصغير حدود الدنيا بين ضفاف مدينتي، قدر لها أن يحصرها النيل بهدوئه، والبحر بأمواجه، أنظر ناحية البحر فأتعثر بنهاية العالم، أستدير ناحية النيل فيواجهني بمنتهى الجمال، بنيت معتقداتي الصغيرة أن مدينتنا هي الأرض الشاسعة، وما دون ذلك من أمكنة جزر عالقة بمياه البحر الممتدة، أغمض عيني، أنام كما النيل في أحضان البحر، وأصبح على الدقات المتتالية التي تنظمها جواكيش النجارين بورشهم الصغيرة؛ فأردد معهم تلك الكلمات الصباحية الدافئة (يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم.. أصبحنا، وأصبح الملك لله)، أشم رائحة الخشب المطحون؛ فأنتشي، أتلذذ بها ثم أستعيد معها أيام إجازتي الصيفية، حيث إلحاقي بإحدى ورش النجارة للعمل، وذلك ما تجري عليه العادة بمدينتي العاشقة «دمياط»، بل كان تعلم الحياة هو الغاية من هذه العادة، كل شيء في الورشة كان له في ذاكرتي مدلوله الخاص، الغراء بأبخرته الساخنة، يترك داخلي صورًا متعددة للخوف، أرتعد منه، من سطوته، وطغيانه، يغلي فوق الموقد

الحجري، ويلهث بفقاقيعه الملتهبة؛ فأكتم أنفاسه بفرشاة كبيرة، يستعين بها «المعَلم» ليفرض هيبتها على ألواح الخشب المسكينة.

كانت «المنجلة» تمثل لي رمزًا للقيد، أو للسجن، بل للموت؛ فيعتقل «المعَلم» يد المذنب بين شفرتيها الخشبيتين، يشد عليها بقوة كقطعة خشب صغيرة أبت الانصياع للتشكيل، لكن يأتي يوم الخميس أجمل أيام الحياة؛ فيوحد أمامي كل تلك الصور في صورة واحدة، أجني منها ثمرة تعبي، أتقاسمها بين نفس الطفل الكامنة داخلي، وبين حصالتي الخشبية، أفرح عندما أهدهدها، أسمع صوت النقود تزغرد داخلها؛ فأشم رائحة الخشب المنبعثة منها، وأهتف بالحياة لكل أشجار العالم. أطير إلى البحر لشراء الدوم، والتين الشوكي، وغزل البنات، أجالس أصدقائي أتبادل معهم الأحاديث، عن ورش النجارة التي يعملون بها، وعن «المعَلمين»، وحجم الأجور، عند المغرب نودع البيوت التي بنيناها بالرمال المبللة، ثم نلوّح للأمواج العائدة، وبقايا أشرعة القوارب البعيدة التي كنا نتسابق على رؤيتها، نطوي الشمس خلفنا تصارع النوارس المهاجرة، ونعود...

بالصباح أهشم قفل الورشة، أنظف الأرضية من قشور الأخشاب المتطايرة، أدير مؤشر المذياع العتيق، أتوقف به على إذاعة القرآن الكريم، أنشغل برش المياه أمام الباب لإحباط محاولات الغبار من التراكم بالداخل، وأنتظر «المعَلم» لأبدأ معه قطف يوم جديد من باقة إجازتي الصيفية...

أودِّع أيام العمل، وأبدأ الاستعداد لاستقبال الدراسة؛ فأنزع غطاء حصالتي الخشبية، بشغف أعد نقودي، ثم أطير صوب أبي كي أبلغه بما جمعت، فيطعمني بابتسامته الحانية، يربت على كتفي، ثم يضع بين يدي أضعاف المبلغ، وبأول أيام عامي الدراسي، أكتسي ملابسي الجديدة، جوربي، حقيبتي، وحذائي، أمشي ببهاء المنتصر، أملأ صدري برائحة الخشب العالقة بندى الصباح، فأهدي شكري لكل أشجار العالم

ملعونة تلك الإشارات

- من فضلكم . ورقة وقلم

ربما لا أتذكر في أي يوم أجدت قراءة الجريدة اليومية ، ولا أتذكر متى أتقنت كتابة جملة كاملة على قصاصة من الورق، لكني مازلت أذكر أختي «سميرة» - رحمها الله - وهي تمسح على شعري، وتنبس لي بشفتيها مبتسمةً، كلما كتبت اسمي كاملًا من دون خطأ، فأعود أكتبه مرة أخرى، ثم أكرر ذلك مرات ومرات، تبتسم «سميرة» بتنهد، وأنا أجذب ذراعها لتطالع ما كتبت في كل مرة ، أذكر وقتها أنني كنت صغيرًا جدًا، حد جهلي بما تحويه الكتب المتراصة بمكتبة أبي، والتي أشعر نحوها بانجذاب غريب، سرعان ما ينتهي بإحباط عندما لا يتعدى فهمي عنوان الغلاف...

◇◇◇

كم أكره الإيماءات، والإشارات، التي تُوَجَّه إليَّ بنهي، أو نفي، أو طلب، وها أنا أحاربها دائمًا بورقة، وقلم، أكتب فيها ما أريده منهم، ثم أمزقها، وأدوسها بحذائي... يا كل من بالمنزل... الآن، ومنذ زمن بعيد، أقسم لكم أنني أستطيع أن أكتب وأقرأ، أما زلتم لا تعلمون هذا؟! ها أنا وللمرة المليون أُذكِّركم، بأنني لست هرًّا، أو فأرًا، أو حتى حمارًا لا يفهم إلا تلك الإشارات البلهاء، ملعونة تلك الأصابع الراقصة على وجه رجل يجيد قراءة لغة العالم، هيا اسألوا أختي «سميرة» وهي تخبركم، فربما تُربِّت على رؤوسكم إن وعيتم ما أقوله لكم الآن... وها أنا أعلنها أمامكم، أنني منذ هذه اللحظة سأقُصُّ كل بنان يُرفع نحو وجهي، كي يجبرني على الفهم...

۞۞۞

جذبني أخي «عامر» نحو التلفاز، كان فيلمًا قديمًا يحشو الشاشة – عربيًا ربما – هذا ما توقعته لحظتها، فأوجه الشخوص المتحركة كانت ملساءَ، تمامًا مثل وجوهكم – لا تجادلوا يا سادة – فوجوهكم ملساء بالفعل، لكم أن تصدقوني، وتُكذِّبوا كل مرايا العرب... فكرت أن أهشم التلفاز لأنه يعجُّ بالصمت المتحرك، لكنني تحديت رغبتي الأولى، والتقطت المتحكم من يد أخي، قلبت القنوات... قلبت.. قلبت... التقط الزرُّ أنفاسه وأنا

أتوقف به على فيلم أجنبي، انفرجت أساريري عندما وجدت أنني أسير بالترجمة مع الأحداث... أتسمعون؟ صوت تهشم السيارات من صوت ارتطام أسناني، أتسمعون معي دوران أحشائي؟ إن كنتم تسمعون، فأنا وبكل أسف لا أسمعكم...

ççç

– أعلم أنكم تتعجبون...

كما أنني أعي سرَّ ارتسام تلك التعاريج على وجوهكم... كتب أبي... أليس كذلك؟ هذا ما يدور في خلدكم؟... قلت لكم لا تتعجبوا، فأنا أجيد قراءة خطوط الوجوه، كما أجيد قراءة الأحرف، لا... ليست «سميرة» هي من علمتني تلك اللغة، بل أنتم جميعًا من علمتموني إياها بنبس شفاهكم... أعود للسؤال، الذي زاد من سطوته بعقولكم، كيف أنني أتقن كل هذه اللغات، ولا أعي إلى الآن ما تحويه كتب أبي؟... سأجيبكم بكل تأكيد، لكن لابد أن أجتذب منكم وعدًا، أتعرفون ما هو...؟ أن تكف أصابعكم عن ملاحقتي بتلك الإشارات اللعينة، أعلم أنكم لن تحنثوا بوعدكم، لذلك سأجيبكم... لكن ليس الآن، لا تزمجروا، وابسطوا تلك التجاعيد العالقة بجباهكم، وهيا أعطوني ورقة وقلمًا حتى أجيب، فأنا لا أجيد التحدث بلغتكم، هذا وباختصار لأنني...



شوائب عالقة

مد يده يلتقط حفنة «الدولارات» وضعها بين أصابعه، أخذ في عدها باحتراف، دسها في جيب قميصه، هز رأسه، ربت على جيبه المحشو بالنقود، ثم جذب نفسًا من بئر النفس الغائرة داخله:

– تمام سيدي... المبلغ مضبوط.

– كلما أمددتنا بمعلومات هامة زدناك.

– لا تقلق أنا لا أترك «دبيب النملة» إلا وأخبرتك به.

– حسنًا... نريد منك معلومات دقيقة عن تحركات «أبي كفاح».

– قائد المجاهدين؟!

– نعم. قائد الإرهابيين.

– لكنه يتحرك بتخف، وفي كل يوم يغير من مكان تواجده.

– اجتهد أكثر؛ ندفع أكثر.

– حسناً... لكنني أحتاج لمبالغ كبيرة لشراء المقربين منه.

– لك كل ما تريد... المهم أن تحدد لنا مكانه بأسرع وقت.

ألقى إليه بحفنة من الأوراق الخضراء... اثنتين... افترش المكتب بثلاث حفنات، انكفأ عليها بنهمه، لملمها، ثم ضمها إلى صدره، انسكبت السعادة الطامعة من وجهه، تحرك صوب الباب للانصراف.

– ثاقب!

– سيدي؟!

– اجتهد أكثر؛ ندفع أكثر.

– لن يمر اليوم إلا وعندك معلومات عن مكان «أبي كفاح».

وسط الشوارع العائمة على بركان النار، يتشمم رائحة الصمت وسط الأنفاس اللاهثة، يقترب من حلقات البشر الملتفة بالحديث، من النوافذ وأبواب البيوت المغلقة، انطلق أذان المغرب من المسجد الشرقي يصفع حواسه المنتشرة، صنع الشيخ «نبيل» إمام المسجد بصوته الجهور سدادات ووضعها بأذنيه، حجبت عنه ما يراه من أفواه متحركة، حاول الهروب ناحيته عله ينزعها عنه، خلع حذاءه الضخم، زرع أهدابه بين الخاشعين، سلم بوجهه يمينًا فيسارًا، وعاد يصافح من بجواره، أخذ يتمتم بالخواتيم، نقر الأرض بما تبقى من ركعات، صعد الشيخ «نبيل» المنبر، كلماته عن الجهاد تخترق الصدور: (لن نترك الحرب، سنجاهد إلى أخر رمق من دمائنا، لابد وأن نخرجهم من أرضنا، من بيوتنا... من أنفسنا، من يمت

منا فهو شهيد، ومن يمت منهم فهو في النار)، خرج المصلون يعتلون حناجرهم: (الله أكبر.. الله أكبر)، انسل من بينهم كي يرقبهم من بعيد، تفحصهم واحدًا ... واحدًا، «أبو كفاح» ليس بينهم، من الممكن أن يكون هو هذا الملثم؟ لا... غير ممكن إنه صبي صغير، ربما صلى بمسجد آخر، نعم هو بمسجد آخر، سأذهب إلى «حسين» الحلاق ربما رآه اليوم فمحله بجوار منزله القديم...كبَّر معهم: (الله أكبر .. الله أكبر)، شق كتلتهم الحامية، غاب عنهم بتكبيراته قاصدًا «حسين» الحلاق، توقف قبل أن يصل إليه، أخرج كومة من «الدولارات»، سلخ منها حفنة صغيرة، واستقل بها جيبًا آخر:

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام يا «ثاقب».

– كيف حالك؟

– الحمد لله.

– شعر أم ذقن؟

– إن أردت... فذقن.

– أين كنت الآن؟

– أصلي المغرب بالمسجد الشرقي.

– سمعت بتظاهرة كبيرة هناك.

– نعم. بعد خطبة الشيخ «نبيل»الحماسية.

- الشيخ «نبيل» رجل مجاهد محب لبلده.

- نعم. مثل «أبي كفاح»، ألا توجد أخبار عنه.

- لم أره منذ سنة تقريبًا.

- ألم تره اليوم؟

- قلت لك لم أره منذ سنة.

أخرج حفنة النقود من جيبه، لوح بها مداعبًا بها الهواء يمينًا فيسارًا:

- بكم تحلق الذقن؟

- بنصف دينار.

- متأكد أنك لم تسمع أية أخبار قريبة عن «أبي كفاح»؟

- حلاقة الذقن بنصف دينار فقط يا «ثاقب».

- حسنًا...علمت ذلك.

- نعيمًا.

- أنعم الله عليك.

- تفضل... نصف دينارك.

- أشكرك... مع السلامة.

خرج يطوي بذيله خيبة الأمل، يؤنب نفسه كثيرًا: (كان يجب أن أعرض عليه مالًا أكثر، استسلمت له سريعًا، لكنني خفت أن يرفع صوته فينفضح الأمر، نعم. ما فعلته كان عين العقل، إنسان غريب... معقول أنه يرفض

هذا المبلغ الكبير؟! لا بأس... مازالت الفرصة أمامي، سأزيد من المبلغ، وأحاول أن أشتري «محمود» البقال، فقد اشتهر عنه الطمع وحبه للمال).

أخرج خصلة الأوراق الصغيرة من جيبه، زاد عليها من الحفنة الكبيرة:

– السلام عليكم.

– عليكم السلام.

– كيف حالك يا «محمود»؟

– الحمد لله.

– هل عندك سجائر؟

– أي نوع؟

– النوع الأجنبي.

– لا أبيعها.

– لِمَ؟!

– أنا لا أبيع إلا النوع المحلي.

– لكن النوع الأجنبي مكسبه أكثر.

– أعلم. لكن ألم تسمع عن المقاطعة؟

– وماذا تفعل المقاطعة مع أسلحتهم يا رجل؟

– أضعف الإيمان يا «ثاقب».

– تغيرت كثيرًا يا «محمود».

- لست وحدي من تغير.

- الجدال معك لن يجدي. أعطني صندوقًا من السجائر المحلية.

- تفضل.

- أشكرك... وهل أنا الآن انضممت للمقاطعة؟ هأهأهأ.

- المقاطعة واجب وطني.

- والجهاد كذلك واجب وطني.

- أعان الله المجاهدين.

- ألم تسمع شيئًا عن قائدهم... فهو جارك.

- لم أره منذ أن ترك الحي واتجه للجهاد.

- آه...كم ثمن السجائر؟

- دينار واحد فقط.

أخرج باقة النقود الحائرة، ألقاها أمامه، ثم أحنى رأسه البيضاوي نحو أذنه:

- ألا تعرف شيئًا عن «أبي كفاح».

- ماذا؟!

- سأعطيك مثلهم إن أدليت لي بمعلومات عنه.

- السجائر ثمنها دينار فقط يا «ثاقب».

- سأعطيك من «الدولارات» أكثر وأكثر إن شئت.

– أنا لا أتعامل إلا بالدينار. لي عندك دينار واحد.

– أهي المقاطعة إذًا.

– هي كذلك.

– آه.. تفضل دينارك يا عاشق الفقر.

– شكرًا ومع السلامة.

خرج يضرب كفًا بكف، ماذا حدث للناس؟ «محمود» الذي كنا نلقبه بـ«محمود الطماع» ينضم للمقاطعة، ويرفض آلاف الدولارات، أظن أنني بالمدينة الفاضلة ولست في مدينتي التي ولدت وعشت بها، منذ أن دق بابنا «أنصار السلام» وقد تبدل كل شيء، الكل هنا يعتبرهم غزاة طامعين، تحولوا إلى أناس آخرين غير الذين عشت معهم وعاشرتهم، الشيخ «نبيل» الذي كان لا يجرؤ أن يهاجم الحكومة، في خطبه اليوم يحشد الناس للحرب والجهاد دون خوف أو رهبة، ماذا حدث؟! لم أعد أسمع أحدًا يتكلم على أحد، فمحل «حسين» الحلاق كان لا يخلو من النم و الغيبة في حق الآخرين، اليوم تحول إلى مسرح ينقل فيه أخبار المقاومة. ما هذا؟! شيء غريب... النقال يدق... من يا ترى؟

– ألوو..

– ثاقب، أين أنت؟

– سيدي، أنا طوع أمرك.

– هل حصلت على المعلومات التي طلبتها منك؟

– تقريبًا سيدي.

– لا يوجد عندنا شيء «تقريبًا».

– بالتأكيد سيدي.

– جمعت المعلومات، أم لا؟

– جمعتها سيدي.

– تعال هنا حالًا وأدلي بها فأنا أريد القضاء عليه الليلة.

– حاضر – سيدي – سأكون عندك حالًا.

انغلق خط الهاتف، انفتح التلفاز على نشرة أخبار التاسعة مساءً، وجم وجه المذيع، وهو يعلن خبر قصف المسجد الشرقي، الذي أسفر عن مقتل عشرات المصلين، وقائد المجاهدين الذي كان يصلي بهم.



الآنسة «ماغي»

كانت تجلس خلف مكتبها جوار النافذة الزجاجية، تتوسط عمودين من الأوراق المتخمة بهموم العمل، لا تكاد ترى شيئًا حولها سوى بؤرة الحاسوب المضيئة من أمامها، صوت لوحة المفاتيح تحت أصابعها يكشف عن مهارة فائقة، توقفتْ قليلا... استوعبتني بنظرة شاردة، انكبت منها على حقيبتها تبحث عن شيء ما، بعد حيرة لم تطل سألتني عن قداحة، نفيت عن نفسي اعتيادي للتدخين؛ فأظهرت تململًا بحنق خرج مع دفعة هواء أطلقتها من فمها الملون، نادت الساعي «بلال» بأعلى صوت امتلكته، انبثق أمامها في لمح البصر، تناول منها أمرًا بإحضار قداحة في الحال، هز رأسه إليها بالطاعة، عاد وقد أحضر لها ما وقع تحت أنياب إرادتها، سحبت من حقيبتها صندوقًا أنيقًا مرصعًا بفراء حيواني، أزاحت الغطاء كاشفة عن صفين من قضبان السجائر، انتزعت واحدًا... أشعلته... احتضنته بين شفتيها، مدت يدها لإشعال شمعة اسطوانية حمراء، وضعت أمامها،

ردت ظهرها للوراء، ثم رفعت رأسها لأعلى، نشرت دخانها الذي اختلط بضوء الشمعة الخافت، تشعب داخل الحجرة حتى وصلتني رائحة التبغ المحترق، عادت لاستيعابي بنظراتها، سألتني عن اسمي الذي أخبرتها عنه بالأمس، أجبت سؤالها، أقرت بتأكدها من ضيقي لتنفسي رائحة الدخان طالما أني لست من فئة المدخنين، لم تنتظر ردي حتى أخبرتني بأنها لا تقدر على مواصلة العمل دون مواصلة التدخين، وطلبت مني عدم اندهاشي لأنها هي من ألصقت لوحة – ممنوع التدخين – على باب الغرفة، إلا أنها هي وحدها من تدخن، ولا تسمح لأي شخص آخر أن يدخن في حضرتها مهما كان، فهي تشعر بالغثيان من رائحة دخان السجائر التي تنطلق من أنفاس الآخرين، تداخل مع حديثها صوت هاتفها النقال المسند على قاعدة أنيقة، جذبته بأطراف أظافرها اللامعة، تطلعت رقم المتصل، قبل أن تضغط زرَّ الاستقبال، أظهرت تململًا من نوع آخر، هذه المرة لم يكن تململها مصحوبًا بدفعة هواء ساخنة من فمها، بل صحبته بنوبة سباب خارجة عن عرف الآداب، صدمت بها... احمر وجهي خجلًا أمام تلك الكلمات، لم تعطني الفرصة لمواصلة الاندهاش، أدخلتني في دائرة أخرى بصوتها الذي انطلق كصاروخ سقط فوق المبنى، وهي تؤنب المتصل، وتنهره على الحنث بوعد قد وعدها به بالأمس، أغلقت الخط في وجهه، عادت حيثما بدأت بسباب وشتائم لا تليق بأنثى، نادت الساعي

المسكين، انشقت الأرض وخرج منها «بلال» كعفريت المصباح، تساءلت عن سبب تأخره عليها من لحظة النداء، أعقبت تساؤلها بلقب «حيوان»، تصنمت الكلمات داخله، حتى استقبل أمرًا آخر بعمل فنجانٍ من القهوة، استدارت نحو لوحة المفاتيح التي أوشكت على الانفجار، تقطع من أعمدة الأوراق، تلصق عليها توقيعها، ترتشف من القهوة التي لا أعلم متى أحضرها المسكين، تجذب أنفاسًا من سيجارتها، تعود للوحة المفاتيح، حركات متتالية ومتشابهة، ولدت داخلي شعورًا بعدم الأمان داخل هذا المكان المشحون ببركان مجنون، تمنيت أن أترك العمل، أبحث عن عمل آخر بمكان آخر، لكني كنت أتوقف عند حدود متطلبات المعيشة التي لوحت لي من خلف تلك الصور الغريبة التي ألصقت بها الجدار من خلفها، هيأتها الخارجية المطعمة بشعرها الأسود الطويل، نظارتها الطبية الصافية، لا تكشف عن هذا الجنون الرابض داخلها، سمعتها بالأمس تقص لأحد الزملاء بأنها قامت بالاعتداء على سائق حافلة ركاب قد أغلق عليها الطريق، فأوشكت أن تصطدم سيارتها بالرصيف، ظننت أنها تبالغ بقصتها؛ فأدخلت عليها بعض من الخيال الذكوري الذي تتمناه كل أنثى، لكن ما رأيته اليوم يؤكد لي صدق قصتها، وينفي انطباع السذاجة عن زميلي الذي كان يصدقها في كل كلمة تقولها، انقطع صوت تفكيري، وصوت لوحة المفاتيح بصوت المدير العام الذي اقتحم المكان:

- صباح الخير.

- صباح النور.

- كيف حالك آنسة «ماغي»؟

- على مايرام.

- وأنت أستاذ «صابر»؟

- الحمد لله.

- مرتاح معنا؟

- مرتاح جدًا.

- عليك بمتابعة «ماغي» فأنا شخصيًا أتعلم منها.

- أقوم بذلك بالفعل، وقد تعلمت منها الكثير.

- عظيم.

غادر المكتب مناديًا الآنسة «ماغي» التي لملمت بعضًا من الأوراق لتلحق به بمكتبه المجاور، لإعطائه جرعة جديدة من التعلم.



لون الماء

تيت... تيت... تيت

صفارات الإنذار المتقطعة تعلن عن حالة الخطر، الظلام يحصد أنوار الشوارع، والبيوت المتناثرة، المارة يهرولون للاحتماء بالملاجئ، أو قيعان سلالم المنازل، ابتلعت السيارات أضواءها، توقفت تمامًا عن السير، إلا أن ساحة التجمد لم تخل من تمرد بعض السائقين، صوت الطائرات المحلقة يقترب من الصفير المتقطع، أبواق السيارات تزيح صراخ المراقبين للنظام، مازال جرس «الترام» يعيش على أمل اللقاء بالمحطة القادمة، النداء الغنائي لـ«محمدين» الفكهاني يتهادى من إحدى الحارات الضيقة، لا يعبأ بالظلام، وأزيز الطائرات المحلقة، يقترب منه أحد المراقبين:

– هيا... يا «محمدين»، إلى أقرب ملجأ.

– أهرب، وأترك «البضاعة» لمن؟

– وماذا سيحدث «للبضاعة» ؟!

– الغارة الماضية لم يترك لي أولاد ال... برتقالة واحدة.

– هيا يا رجل، الوقت يمر... الطائرات تقترب.

– عجبًا والله!... وهل تستهدف الطائرات الفاكهة هذه الأيام؟!

٭٭٭

تيت... تيت... تيت

بقلب الظلام ترسب بخار الأنفاس المتهالكة على بقايا زجاج النوافذ، القلوب الخافقة تلف الأصوات الوليدة، القلق يزحف على جدران الصفيح، الهمهمات تتواثب من الأفواه المعتمة، مازال السائق يتلاعب بآمال التحرك، يملأ الرنين أنفاق الخوف الغائرة بين الصدور، «الكمسري» يكف عن دق صندوق أوراق التذاكر، ينادي السائق:

– أغلق الأبواب يا عم «فرج».

– نسيت أن الأبواب «مزرجنة»؟

– والله هذا «قطع عيش».

– «سيبها على الله»... الدنيا بخير.

– تذاكر... تذاكر... ورااق.

– ....

– تذاكر يا حضرات.

– ....

تحسس المقاعد، فإذا بها خاوية.

ççç

تيت... تيت... تيت

تحت النهر العائم على الأرواح الهاربة بقبر الحياة، تتلاحم الأجساد الساخنة بالقرب من الجدران، يسقط بعض الضوء على أنصاف الوجوه، بلون الماء تتلون الأنصاف الأخرى، دمعات...، حبات عرق...، رضاب الخوف...، ألوان متعددة للون واحد، تتساقط الآلام بين اللهج المتتابع.

- يا حضرات، أطفئوا السجائر؛ فتحات التهوية غير كافية.
- والله «خراب بيوت»، منذ الصباح لم أبع إلا خمس جرائد.
- لقد تأخرت عن «الوردية»، وكل يوم خصم من الراتب.
- لا أدري ماذا افعل؟ أولادي وحدهم بالبيت، والصغير لم يرضع.
- حتى المقاهي أغلقوها، كنت أسترزق بدهان زوجين... ثلاث... أربع... أحذية.
- أتسمعون؟ مضادات الطائرات تنطلق.
- كانوا ثلاثة في عام ٥٦ والآن...
- واء... واااااء... واااااااااااااء.

الصفارات الطويلة تعلن عن زوال الخطر.

بيييييييييييييييييييييييييييييييب

◊◊◊

– من نسر إلى صقر... من نسر إلى صقر... حول.

– صقر يسمعك بوضوح... حول.

– ما آخر تطورات الوضع؟

– تم تحديد إحداثيات الأهداف، ننتظر الأوامر.

– افتح النار.

– عُلم، وجاري التنفيذ.

أهرامات الضحك



اهتز باب الشقة بدقات هادئة، ظننت أنها فلول هاربة من عاصفة عابرة، لكني علمت أنها بصمة من بصمات حضوره المميز، عندما انطلق الجالسون بصيحة واحدة زينتها الدهشة لهول المفاجأة، انفجرت أفواههم بنطق اسمه تباعًا: «حازم ثابت»!! التعجب كان حليف ذكر اسمه دائمًا، السخرية المخضبة بالانبهار المتبوع باسترجاع أفعاله الغريبة تاجًا من تيجان سيرته الغائبة، كنت قد التحقت بهم بعد الإعلان عن حاجتهم لمرافق يشاركهم مسكنهم، عرَّفتهم بنفسي، عرَّفوني بأنفسهم، بدأ التأقلم مع عادات كل واحد منهم يبني بيوتًا صغيرة لهم داخلي، لكل منهم سمة تميزه، عاداته الخاصة المختلفة التي ينفرد بها كل شخص عن غيره، إلا أنهم اجتمعوا جميعهم على وليمة السخرية، والتهكم حتى من أنفسهم أحيانًا، تعرفت على «حازم ثابت» من خلالهم، شاركتهم الضحكات عندما كان يشرع أحدهم بتقليده بطريقته المضحكة التي تستدعي استجلاب مشاعر الهزل، لترسم نفسها على معالم وجهي، لم أحظ برؤيته من قبل، لكني

رأيت ما تركه خلفه من كتب باللغة الإنجليزية على مكتبه الصغير، رأيته من خلال أشيائه غير المستقرة: سرير سفاري، دولاب رحلات صنع من جلد مصقول، كرسي أشبه بكراسي البحر، حاولت العبث خلسة في كتبه، لكنها كانت تتعدى فهمي للغة الإنجليزية، استنتجت من رحلة تصفحي القصيرة أنها كتب تختص بالهندسة، والاقتصاد، أشارت بعض لقيمات الكلمات التي التقطها، والرسوم البيانية، والتصميمات إلى ذلك ، رسم مجموع هذه الأشياء صورة «كاريكاتورية» له بذهني، لوَّنها المقلد البارع «ياسر على» أحد فرسان الوليمة الساخرة، بل وأمهرهم في امتطاء الشخصيات، والعدو بها من حولنا، لم يترك فيه شيئًا إلا وأصابه: رأسه الحليق دائمًا، مشيته الكسولة، عيناه المقفلتان، طريقته عندما يجد صعوبة في تذكر أسمائهم، ملابسه التي لا تغادر جسده حتى أثناء نومه، حقيبة كتبه التي تشبه أكياس الشحاذين، كوبه الضخم، ملعقته، صحونه التي تتصدرها صورة الفأر الأمريكي الشهير، حتى حذائه العسكري الطويل لم يسلم من إصاباته، وسط هذه المسرحيات، يقرؤون عليّ قوانين المعيشة بينهم، مشاركتهم «جمعية مكافحة الجوع»: هي جمعية فيدرالية من تأسيسهم، يشترك فيها كل مقيم بينهم بسهم شهري من أجل شراء الطعام، تركوا لي حرية اختيار يوم من أيام الأسبوع لممارسة الطبخ، يوم آخر لغسيل الأوعية، ويومٍ لإشغال الغسالة بملابسي، وركنٍ أحدده من أركان

الشقة يكون تحت سيطرتي التنظيفية، الغريب في الأمر أن «ثابت» كما يلقبونه، كان بعيدًا عن هذه القوانين، على وجه الخصوص بند «جمعية مكافحة الجوع»، أخبروني بأنه يأكل طعامًا من نوع خاص، يشتريه من مطاعم تصنعه له خصيصًا، يعتمد اعتمادًا كليًا على: العصائر، المعلبات، الشيكولاتة، بعض أنواع المكسرات، لا يسمح لأحدهم بمس متعلقاته الشخصية، إن وقع واحد منهم في خطأ المساس بشيء من أشيائه تركه هدية له، أو حذفه من حياته بصندوق المهملات، بعدها يغسل يديه بجميع ماركات المعقمات، كثيرًا ما يغيب عنهم لأيام لا يعلمون عنه شيئًا خلالها، يمحى اتصالاتهم فور ظهور رقم أحدهم على شاشة استقبال جواله القديم، يثور لو تطرق متطفل منهم بسؤاله: (أين كنت؟)، (إلى أين أنت ذاهب؟) لوائح قوانينهم واضحة، بل وصارمة في بعض بنودها إلى حد لا يقبل المناقشة، سداد الإيجار في موعده أول كل شهر، عدم التخلف عن جدول الطبخ، والنظافة تحت أي ظرف، لكن ما أثار انتباهي، أن عادات «حازم ثابت» الشاذة المضحكة، كانت خطًا رئيسيًا لقبولها ضمن لوائح هذه القوانين، سألتهم عن غيابه أجابوا بصوت واحد: (لا نعرف أين هو الآن، غاب منذ أيام ولا نعلم عنه شيئًا، لكنه يوما ما سيتحفنا بحضوره، طارقًا علينا الباب، ورغم انه يحمل مفتاحًا، إلا أنه لا يستعمله أبدًا.) زاد فضولي بسؤالهم عن دراسته، أجابوا بنفس اللهجة السابقة: (لا نعرف ماذا يدرس،

ولا لأي كلية ينتمي، يومًا نستقبله بكتب في الأدب ، يومًا يدخل علينا حاملًا أدوات هندسية، وآخرها دخل علينا وعلى ذراعه معطف طبيب، لا يسمح بالأسئلة أن تتسلل إليه، وإن طرحت يتجاهلها كأنه فقد السمع)، انسحبت من هذا الاستحضار الذي غزاني، تعلقت بالباب، لأكشف إلى أي مدى وصل بي خيالي، أردت أن أطابق الصورة بالواقع، تقدم «مصطفى حسين» نحو الباب، خلعه من مكانه، كان أكثر فرسان الوليمة حكمة وعقلًا، يصنع «إيفيهات» محبوكة، تستدعي التفكير قبل الدخول في غيبوبة الضحك، يستخدم دراسته لعلم النفس في إطلاق أسماء مختلفة علينا، توجه بنظره محذرًا «ياسر على» بأن يضع لسانه بالعلبة بدلًا من العفريت، التزم الجالسون الصمت المحشو بطلقات الضحك، تحرك الباب كي يكشف عن وجهه الملطخ بضباب الشتاء البارد، بدأت مقاييس التطابق ترتفع، تنخفض داخل ذاكرتي، ونظرة مهيبة لتحرير النتيجة من قفصها، بدأ ظهوره يبدد الضلالات المتكتلة أمامي، أثبت «ياسر على» –طالب الحقوق – أنه مصور من طراز راقٍ، الصورة كائنة كما وصفها تمامًا، ألقى علينا السلام، كصدى صوت يرتد إليه رُدت إليه التحية بتواترات صوتية مختلفة، كانت أقرب إلى لغة الوليمة الساخرة، لم يتجرأ عليه أحد بالسؤال عن سبب غيابه خلال الأيام الماضية، أضاع عليهم فرصة التمادي في محاورته، دخل غرفته التي أتقاسمها معه، غاب لحظات بالداخل، كأنه

أراد الاطمئنان على مصير أشيائه، خرج معلقًا الكتابين رفقائي في رحلة التصفح القصيرة بأطراف أصابعه، توقف أمام صندوق المهملات دفنهما داخله، ثم هوس المعقمات ينهال به على مكتبه، ويديه، لفني الذهول وسط الغمزات، واللمزات المتتالية، كيف علم بأن يدًا غريبة تلاعبت بكتبه أثناء غيابه، سحب «مصطفى حسين» سؤالًا وصوبه نحوي: (هل لمست كتبه؟)، ألجمني الذهول بالصمت الذي اقتحمه «حازم ثابت» بسؤال آخر، طالباً به الكشف عن شخصية صاحب السرير الذي يرافق سريره داخل الغرفة، أنقذني «أحمد عبد الله» أحد المقيمين معنا، ومن أبرز رواد الوليمة، بل هو المحرك الأساسي لها، صاحب إشعال فتيل السخرية الأول دائمًا، أشار بكفه الأيمن نحوي، قدمني له، وقدمه لي، فانزلق بنظره إلى أسفل قدمي، ارتفع يتفحص وجهي، هز رأسه أمامي، بادلته ترحيبه بقلق، وخجل، حيث كنت أستعد للإجابة عن سؤاله القادم عن سبب تطفلي على كتبه التي فقدها منذ لحظات، خذلني، انسحب بهدوء نحو الداخل، كان لابد لي من تهيئة نفسي للتعايش مع هذا الكائن الفضائي كما يصفونه دائمًا، خلعت جسدي من مكانه مصطحبًا حفنات من الفضول، فرضت نفسي عليه داخل الغرفة المشتركة، كان ممددًا على سريره دون أن يخلع ملابس خروجه، بيده كتاب باللغة الإنجليزية، تظاهرت بترتيب ملابسي، لم يعبأ بوجودي، شهقت شهقةً داخلي، استعدادًا لغزو فضاء هذا الكائن،

لكنني فوجئت به يسبقني بسؤاله عن مدى حبي للقراءة، والتداخل مع عالم الكتب، فهمت ما يرمي إليه بالطبع، يستخدم طريقة محقق المباحث في استدراج المتهم للإيقاع به، يريد الوصول بطريقة غير مباشرة لمعرفة المتسبب في فقده لكتابين من كتبه، أجبته بالإيجاب، لكنني نفيت عن نفسي حبي لقراءة الكتب الأجنبية، صمت لحظات، لم أدعه خلالها يخوض بالتفكير في سؤال آخر، صممت ألا يصل إلى ما يريد، وانهلت عليه بسؤالي بعد أن سبقني بضربته الأولى:

– حضرتك، تقرأ كتبًا أجنبية فقط؟

– نعم. واسمي «حازم» بدون حضرتك.

– شرفت بك.

– أهلًا.

دس رأسه داخل الكتاب كالنعامة، قررت أن أستمر في خوض المعركة، رغم إجاباته المختصرة جدًا ، والمحدودة ، كثفت الأسئلة مع استعدادي لتحمل النتائج:

– تقرأ أدبًا إنجليزيًا؟

تظاهر بعدم السمع، الإصرار كان يلح على بالمواصلة، أعدت عليه السؤال:

– حازم، تقرأ أدبًا إنجليزيًا؟

رمقني بنظرة خافتة من خلف كتابه، ازدادت حدتها تدريجيا كأعين القطط السوداء بالظلام، أعقبها بشرود غريب:

- هل تقرأ أنت أدبًا إنجليزيًا؟

- أقرأ روايات مترجمة.

- لمن؟

- لـ «تشارلز ديكنز»، «باولو كويلو»، «أجاثا كريستي».

- الترجمة لا تشعرك بلذة ما أبدعوه بلغتهم.

- أعلم ذلك، لكنني لا أجيد الإنجليزية.

- واضح أنك تحب القراءة.

- أعشقها منذ الصغر.

- قلت لي ما اسمك؟

- أخوك «عمر محمود».

- أحب اسم «عمر».

- أكرمك الله، مِنْ لطفك.

- هل قرأت «عبقرية عمر»؟

- نعم. قرأتها.

- ما رأيك بـ«العقاد»؟

– «العقاد» مفكر وفيلسوف رائع، أتفق معه في أشياء، وأختلف معه في أشياء أخرى.

– تختلف معه؟!

– نعم. وهل في الأمر غرابة؟

– قلت لي ما اسمك؟

– اسمي «عمر». «عمر محمود».

– آه... تذكرت.

– لا عليك، أعرف أنك تنسى سريعًا.

– من قال لك ذلك؟

– الأخوة هنا بالشقة.

– هل حدثوك عني؟

– نعم ذكروك بكل خير.

– وهل يعلمون عني شيئًا لينسبوا إليه الخير؟

شعرت بوقوعي في خطأ جسيم، كاد أن يزج بي في براثن الوقيعة، وبذلك أكون مثل لاعب كرة القدم الذي سجل هدفًا في فريقه، لملمت الحديث، وطويته سريعًا، لكنه هرب مرة أخرى إلى كتابه، أراد أن ينهي المعركة في جولتها الأولى، صممت أن أحقق انتصارًا أوليًا في هذه الجولة، لن أدعه يفارقني دون عودة، لكن لابد، وأن أنفرد به في ساحة أخرى، بعيدًا عن

حصونه هذه التي يستتر بها، ويراوغني من خلفها:

- ما رأيك بأن نخرج ليلًا نغير من جو الشقة؟

- نخرج إلى أين؟!

- نجلس على المقهى الشعبي بشارع الألفي.

- أنا لا أجلس إلا على «كوفي شوب» بـ «مدينة نصر».

- اتفقنا، ولك ما طلبت.

***

على المقاعد الجلدية الفخمة، بركن احتوانا معًا، بذلك المقهى المحلى بالطابع الأوربي، انفردت به بعيدًا عن المسرح الكوميدي، الذي عج بالاندهاش فور اجتماعنا للخروج معًا بهذه السرعة، حمل معه حقيبة كتبه القماشية، الملقبة بـ«كيس الشحاذين»، أخرج كتابًا غريبًا، تصدر غلافه رجل وسيم ببزة أنيقة، حاولت أن ألملم عنوان الكتاب الذي كتب بخط «الكوميك» الإنجليزي، لكنني وجدت صعوبة بالغة في فك طلاسمه، فكان السؤال عن اسم الكتاب دافعًا قويًا لبدء الجولة:

- ما اسم هذا الكتاب؟

- اسمه (Forex Made East).

- ما ترجمته العربية؟

– سوق تداول الأوراق المالية.

– اقتصاد؟

– نعم. للمليونير «جيمس ديكس».

– «جيمس ديكس»؟!

– هل سمعت عنه؟

– يخيل لي ذلك.

– أتمنى أن أصبح مثله، رجل مكافح، بنى نفسه بنفسه، أبوه كان «مالتي مليونير»، رغم ذلك اعتمد على نفسه، عمل في كل شيء، بدأ من نقطة الصفر، حتى حقق ما يريد.

– حازم. ماذا تدرس؟

– تشرب قهوة؟

– ليس عندي ما يمنع.

– أحب القهوة الأمريكية كثيرًا.

– وأنا أحب أن أجربها.

– سأقوم أحضر الطلب، هنا قانون اخدم نفسك، تمامًا مثل قانون شقتكم.

شاركته ضحكاته، كانت هي المرة الأولى التي ألحظ فيها شفتيه تنفرجان للضحك، قام لإحضار القهوة، حام حولي الشرود في هذه الشخصية المحيرة، أحيانًا يطل من نافذة الانتماء الغربي، أحيانًا يحدثني عن

«العقاد»، عقر دار الأدب العربي، والآن يقرأ لمليونير إنجليزي، يتخذه قدوة له، يتلون كل دقيقة بلون مختلف، يصعب علي تحديد هويته وسط هذا الغموض الذي يتشرنق به، عاد حاملًا صينية عليها قدحان من القهوة الأمريكية ذات الرغوة الكثيفة، تنفذ من وجهه سعادة خفية تستفزني، كنت أقترب منه، أنجذب نحوه، رغم حداثة معرفتي به، جمد بحضوره سيل التفكير المنصب على رأسي، انشغل بفتح كيس من السكر، صب محتوياته بقدحه، نظر نحوي، يلتهم ملامحي، انطلق من صمته:

- تريد أن تعرف ماذا أدرس؟

- إن كان لا يضايقك ذلك.

- قل لي، ماذا تتوقع أن أدرس؟

- أتوقعك طالبًا بكلية التجارة، أو الهندسة.

- لا هذا ولا ذاك، خاب توقعك.

- إذًا، ماذا تدرس؟

- أنا طالب بمعهد الفنون المسرحية.

- معقول؟!

- دراسة فريدة. أليس كذلك؟

- بلى. هي كذلك لكن...

- أعرف سؤالك القادم. لكل مخلوق حيله الدفاعية، ولكن السائد الآن من هذه الحيل بين بني البشر، حيلة الضحك، نهرب من أنفسنا، من التفكير في هموم مستقبلنا بالضحك، بل نبني منه أهرامًا داخلنا، انظر حولك لهؤلاء الناس، كل واحد منهم داخله هرم استغرق في بنائه ليدافع به عن نفسه أمام تلك المعتقدات المجتمعية التي تهاجمه.

- لكنك نادر الضحك.

- اتخذت شكلًا آخر للدفاع عن نفسي من تلك المعتقدات التي تلفنا، أبني هرمي بطريقة مختلفة، بقراءة غيري، والعيش مع شخصيات المسرح، أنسى من أكون؟ وماذا أريد؟ أفكر بتفكير الطبيب، الضابط، المهندس، الفلاح، المحامي، اللص أحيانًا، أفكر كما الشخصيات الأجنبية المترجمة التي تقرؤها، رسمت بأقلام كتاب يعرفون ما يكتبون، أنسى بينهم التفكير في ذاتي، وهمومي المستقبلية، وأحزاني الماضية.

- أنت إنسان غامض.

- كيف تتهمني بالغموض، وأنا أكشف لك نفسي الآن.

- لكن هل ترى أن حيلك هذه...

- «عمر»، أجدادنا الفراعنة مثلًا، كان محور التفكير عندهم ينصب على قطبين: قطب الحياة، وقطب الموت، همهم المستقبلي هو الحياة الأخرى، همومهم لم تكن مثل همومنا، فقد حققوا كل شيء، وعجزوا

عن الخلود في الدنيا، لذلك بنوا لأنفسهم أهرامًا يدافعون بها عن أجسادهم ضد فكرة الزوال، كان همهم الأكبر هو الحياة، والخلود، حضارتهم هذه لم يصنعوها من أجلنا، ولا من أجل الأجيال القادمة كما نعتقد، بل صنعوها من أجل حياتهم القادمة بعد الموت.

- أنت تَعُد أهرامهم حيلة دفاعية ضد الموت؟

- نعم. ونجحوا في تخليد أسمائهم، لكن أهرامات الضحك التي نبنيها الآن نبنيها للهروب من الواقع المرير، ومن شبح حاجات الحياة الذي يهددنا، نتباهى بأهرامهم الشامخة، وننسبها إلينا، ونسخر من أهراماتنا، ولا نحترمها.

- لذلك قررت أن تبني لنفسك هرمًا بطريقتك؟

- نعم. هرمًا أحترمه.

- لكنك بذلك تغلق على نفسك كهفًا، قد تُنسى فيه، وتعيش مع غيرك، لا تعيش نفسك.

- لم تشرب قهوتك.

- «حازم»، أليس من الغريب أنك لم تسألني عن نفسي طوال حديثنا.

- يا صديقي، ما تحويه نفسك لن يفيدني.

- لكني انتصرت على غموضك، ونجحت في الوصول إليك في ساعات معدودة.

- تقصد ساعات ماضية، لكن هل تعلم ما سأفعله في ساعاتي القادمة؟
- أنت...
- أنا أتلون كل لحظة، وكل ساعة، وكل يوم، كلما توصلتَ إليَّ، سبقتُك إلى شكل آخر، لن تنتصر عليَّ بهرمك هذا التافه أبدًا.
- هرمي؟!
- أشرب قهوتك، فالوقت قد طال، وأُفضِّل الانسحاب.

ççç

عدت إلى هرمنا الأكبر، توقفت أمام الباب، وترددت كثيرًا قبل أن أدير المفتاح ليفسح لي الطريق للدخول، الخشية تلفني من لقائه، استعرت الجرأة من قلب آخر، غير قلبي الذي يتهشم بالخوف، تهيأت للقائه، فتظاهرت بالثبات، دلفت بخطوات متباطئة نحو غرفتي، كي أجدها خاوية إلا من سريري الخشبي الراسخ، وخزانة ملابسي الثقيلة، ومكتبي القديم...

قبلة في الرأس

- بقيَ زِرٌّ واحدٌ فقط...

تقدَّمَ بخطىً متباطئة، بعدما أَشرتُ إليه بالاقترابِ... لففتُ ذراعي حول عنقه، فنشبَ العرق بتقاسيم وجهه، فاض... حتى انزلق من مقدمة أنفه ليرتطم بجسدي، قلت في نفسي:(زبون لخمة؟! أهلًا وسهلًا)،... حرقة داهمت عيني عندما أصابتها شظايا من عرقه الساخن، شعر بتألمي؛ فحصر وجهي بين كفيه المرتعشتين، حدق بملامحي، جذب نفسًا عميقًا... ثم نكس رأسه؛ فتلاقت زفرته مع أنفاسي... اقترب بشفتيه من وجهي، بينما كنت أتهيأ لالتقاطهما، انحرف بهما فوق رأسي، قبّلني عليها... صمت قليلًا، ثم اعتذر؛ فانفجرت بضحكتي المعهودة (من أي مريخ سقطت عليّ يا هذا؟!) انتفض من الفراش، أشاح بظهره عني، ثم دفن وجهه بين راحتيه...

- استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم.

ارتعد جسده عندما حاولت لمسه بيدي، دفعني بقوة، و صرخ:

- ابتعدي عني... ابتعدي يا...

ربّت على شعري ثم خرج مسرعًا، و هو يتخبط بأثاث المنزل...

۞۞۞

دلفت إلى الصالة، و أنا أعد رزمة النقود التي دسَّها تحت وسادتي، غريب أمر هذا الرجل!! المبلغ أكثر بكثير من المتفق عليه، (هه... ياما لسه هنشوف)، وفجأة... انفجرت بضحكتي التي طالما اشتكى منها الجيران، عندما وقعت عيني على جوربه المحشو بفم حذائه...

– المجنون!!

– خرج بدون حذاء؟!

أمرت الخادمة بأن تزيحه عن الطريق؛ لربما يتعثر به زبون جديد... التفتت إلي وهي تحمله بين يديها:

– الفطار جاهز يا ستي.

تجاهلت ما أخبرتني به، لا أشعر بشهية للطعام الآن، أمرتها بأن تأتي إليَّ بزجاجة «ويسكي»، وكأس، غابت عني بعد أن تمتمت بنثرات غير مفهومة... آآه... لم يطرق الشرود بابي منذ ألف عام، كنت أعيش قبلها على أحلام فارسي المتيم، حقًا لا أعلم لِمَ سحبني اليوم كي امتطي حصانه الأبيض، وأطير معه فوق أجنحة الفراشات الملونة؟... قاطعتني الخادمة اللعينة:

– الإزازة يا ستي.

ggg

- آخر قطرة...

كل شيء ينتهي، لكني إلى الآن لا أرى نهايتي، تمر السنون، ثم تمر وأنا كما أنا لا أمضي، توقف الماضي عندي خلف وجوه زبائني التي لا أذكر منها وجهًا واحدًا، ولا تعنيني ذكراها في شيء، فأنا أمقت كل الوجوه من حولي، حتى وجه أمي، نعم وجه أمي الذي ألقاني للذئاب، تطبخ لحمي لهم، كي لا يأكلنا الفقر، لم يكن عندها ما تمتلكه غيري، لذلك كان يجب عليها أن تتاجر بي، فهجرتني أحلامي، وقصائدي الصغيرة، وكتبي الممزقة، مزقوا كل ملابسي، حتى اعتدت على خلعها بنفسي... يااه...

- من أي مريخ سقطت عليّ يا هذا؟

قاطعتني حميدة :

- ستي، الهدوم دي لاقيتها....

لكن ضحكاتي التي طالما اشتكي منها الجيران، حرمت الخادمة من متعة الإدلاء بالخبر... (المجنون!!!)

- خرج عاريًا؟!

ççç

باليوم التالي ...

على طاولة إفطاري أحتسي قهوتي أمام صفحات الجريدة، قوانين جديدة، أسعار تتوحش، وأزياء تليق بعملي، صفحة الحوادث:

- القبض على قاتل زوجته، وأولاده...
- قتل جاره والسبب رغيف خبز...
- مزقه كلب حراسة لأحد الوزراء...

انحبست أنفاسي.... ازدردت دهشتي، (معقول هذا ؟؟!!!)

- البحث عن رجل يسير عاريًا بالشارع، يقبل رؤوس النساء ثم يعتذر....

لملمت الجريدة، تركت دموعي، وقهوتي، فتحت الباب، انطلقت نحو الشارع وأنا أحمل ملابسه.

شريحة بطيخ

مدَّ رأسه خلف ظلال الطيور المحلقة فوق الشمس، فتثاقلت عليه أوجاع القلب المغموس في طست الأحماض المُرهقة، لاك بأصابعه صلابة القضبان ليعتصر الألم الذي يفتت أحشاءه المقبلة على الانفجار، حصر نظراته بين قمم الجبال الملتفة من حوله، حتى أوغلت في صدره ريبة الانطلاق بعد تلك السنين التي قضاها بين أنصاب هذا المكان المتخم بأبخرة الأفواه المحترقة، اعتاد على صوت الطعنات، ووقع الأقدام، وجادية السوط، وصوت القهر المنطلق من بين أنياب البشر المتعجرف بآمال العظمة، كل هذا جعل خياله عقيمًا من أمل العودة لخارج تلك الأسوار، حرك طرف لسانه يمسح شفتيه الملوثتين ببقايا العدس، وتذكر عندما أُجهز عليه أحدهم أول مرة، بعد حرمانه من الطعام والشراب طيلة ثلاثة أيام متتالية، كانت بمثابة حضانة الاستقبال التي تخبئ خلفها تلك الأدوات المتفردة

من أحذية سوداء باهتة، وأكف سمراء تلصق بها قضبان من لحم، وبعض من رذاذ الشتائم المحلقة، وأشياء أخرى يجهلها حتى هذه اللحظة، إلا شيئًا واحدًا قد عرفه مصادفة عندما كان ينتظر دوره في طابور دورة المياه المستباحة، اكتشف وللمرة الأولى وبعد مرور كل هذه السنوات التي قضاها تحت أقدام هذا المكان، أن هناك كوة تفتح وتغلق في السور الملتف المتوج بأنياب حديدية تغيظ الشمس، والتي مزقت جسد أحد زملائه عندما حاول الفرار،من تحت طائلة عرش المملكة، كنا نسمع صوت لحمه يتمزق، وقرقعة عظامه عندما كانت تطحنها أسنان الكلاب المتعطشة للحظات الهروب، هاجت رائحة الخوف في المكان، بعد أن أنضجت جلودنا بأزنام السياط المصهللة بالندم، عدت... عاد سريعا بذاكرته عند قفا من يقف أمامه في دور الانتظار، حبست أنفاسي، ارتعدت عندما تذكرت أنه لا يُسمح لنا بأن نعمل عقولنا هنا أو هناك، من يفكر يخضع لجلسات الكهرباء، ويحرم من العدس المعسول بالجوع أيامًا وأيامًا، هززت رأسي وتأملت تعاريج قفاه المتخمة بالشقوق، انطلقت بكلمة نظر لها كل المنتظرين، حتى الكلاب نالت حظها من التلفت، والتبصص (إياك أن تفكر)، كانت هذه هي الكلمة الفضائية المنطلقة بنهي الواقع المتسرطن داخل خلايانا المخدرة، تمدد وقت الانتظار هذا اليوم، فتذكرت شريحة البطيخ التي جادوا علينا بها أمس على«سرفيس» العدس كوجبة إضافية

بمناسبة حلول شهر رمضان، بيضاء مائلة للحمرة، نحيفة غير منتظمة، فعلمت أنها السبب وراء طول البقاء في طابور قضاء الحاجة باليوم التالي، كان زميلي ينحني على كفيه المسندتين أسفل بطنه المنتفخة، وخزته برأس حذائي من الخلف (قلت لك: إياك أن تفكر أبدًا)، التف بجسده نحوي حتى كاد أن يشبه شريحة البطيخ وهلال رمضان وأشياء أخرى أراها جيدا، ثم هز رأسه بعدم الوقوع في هذا الخطأ مرة أخرى، قفز خلفنا أحد العظماء عندما وصل إليه همسُنا، سار يتفحصنا، أمسك رأسي، عصرها بإصبعيه، ثم قذف بها لتضغط على عنقي، وترتد في مكانها، تركني، ثم اقترب منه، تشمم رائحته، أمسك برأسه هو الآخر، أحكم إلصاق كفه بجبهته، احمرت عيناه، وصرخ في وجهه: (فيمَ كنت تفكر يا ابن...؟؟)، دفعه بقوة، ألقاه على الأرض، داس عنقه بحذائه، ضربه بهراوته على ظهره، لم يصرخ، لم يتأوه، لم... لكن دموعه كانت تتبخر على الأرض الإسفلتية عندما انتشرت بقع صفراء على سرواله الأبيض...



ألقتنا السيارة المعتمة على قارعة الطريق، رحلتْ مع غمامة الصوت المزمجر، نظر كل منا صوب الآخر، كأننا نرى أنفسنا لأول مرة، ابتسمنا... الآن آن لنا أن نقفز، ونمرح، ونمزح، ونضحك، ونسهر، ونبك دون ألم، أو... بكينا، رقصنا، قفزنا، ضحكنا، صحنا بأصواتنا لنسمع الصدى:

– نحن أحرار الآن؟

– غير مصدق.

– الآن سأدخن، وأشاكس بنات أفكاري، أتزوج من خطيبتي و...

– مهلًا مهلًا ... هأ هأ هأ

– ما الذي يضحكك؟!

– تتزوج من خطيبتك؟ وهل تعتقد أن خطيبتك في انتظارك يا «محمد» هأ هأ؟

– «محمد»؟! لأول مرة أسمع أحدًا يناديني باسمي منذ... خمسة عشر عـ... خمسة عشر عامًا... ياااااه...

– نعم. خمسة عشر عامًا يا «محمد».

– لقد كبرت إذن...

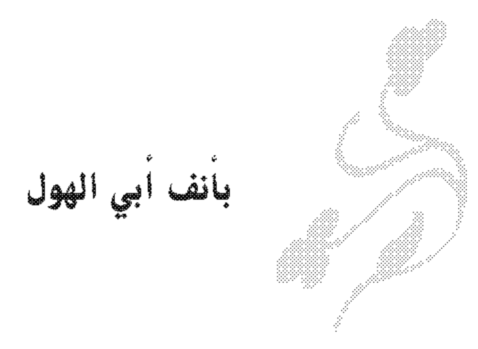
– بل كبرنا معًا...

◇◇◇

كنا نذوب وسط زحام المدينة، الشوارع مُسِخَتْ، البيوت، العمارات، السيارات تحورت، زخم، وضجيج، صراع، سباق نحو الذهاب أو العودة، هذا يحمل حقيبة، وآخر يحمل خبزًا، وهذه تحمل طفلًا، وأخرى تسير شبه عارية، كل شيء يجري، يجري ويلهث، كشريط سينما أجبر على الإسراع بالمشاهد، أو كأننا سقطنا في فيلم من أفلام «شارل شابلن» بحلة جديدة، الألفاظ تتقافز حولنا من أناس يتحدثون بأجهزة صغيرة، تشبه أجهزة العظماء نفهم بعضها، والبعض الآخر لا يفهمنا، ولا نفهمه، كيف سنتعامل مع هؤلاء البشر؟ كيف سنتحدث إليهم؟ النساء تمردن، الألوان أصبحت أكثر لمعانًا، الإعلانات تتحرك بمنتجات جديدة، لافتات المحلات تزهو بالأضواء والأسماء، أشكال ملونة، ووجوه مصورة، أبطال لأفلام سينما نقرأ أسماءهم لأول مرة، الناس تنظر إلينا كأننا بعثنا من الكهف، لم نعد نعرف من أين نذهب ومن أين نأتي، تُهنا، تفرقنا اختفى عني «محمد» وسط أبراج اللحم المتأفف، سقطت يدي من يده دون أن أشعر، أو يشعر هو، دلفت إلى زقاق صغير، شعرت ببعض راحة للماضي العالق على جدران المحال والمنازل المتهالكة، الضوء خافت جدًا، وحرارة الجو مرتفعة، من الممكن أن يأتي العظيم ليجس جبهته فيعلم أنه يفكر؟ ابتسمت، مازلت أبحث عن «محمد»، أو عن طريق منزلنا، لا أستطيع أن أفكر، تجمد عقلي أمام اتخاذ القرارات وحسن التصرف... سمعت صوتًا

جهورًا يأتيني من بعيد، الصوت يقترب، من الشارع المجاور، دفعني الفضول لاكتشاف الفاعل اتجهت نحوه، وكانت المفاجأة، بائع جوال يدفع أمامه عربة خشبية محملة بثمار البطيخ، ابتسمت، عندما حدثتني نفسي بأنني لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا أرى بطيخة كاملة.

بأنف أبي الهول



قطعت رحلتي بين أنحاء المعرض لأتوقف على تلك اللوحة المنْزوية، تحمل بين ضلوعها «نابليون العظيم» يمتطي حصانه الأبيض، يرقب سير المعركة من منظاره الاسطواني الطويل، يستظل بسحب البارود الزرقاء، والغبار الأحمر يتطاير من فوق قبعته المعقوفة، يضع بظهره خلفية لأهرام الجيزة، يتقدمها تمثال أبي الهول بأنفه المكسور.

قرص الشمس الساطع يتوسط بهاء اللوحة، تخيرتني من بين المتفرجين للمثول أمامها، يخترقني كل من يمر جواري دون أن يراها، أو يراني، لاحظت أن أسلوب إدارتها النهائي، يرتكز على إبراز الأشكال الهندسية، تجد الأهرام المثلثة تتقابل مع أفخاذ الحصان، فوهة المنظار المستديرة، تتلاقى مع قرص الشمس، تسيرني نحوها، أتداخل وألوانها، وأحداثها، رائحة البارود تنخر من أنفي، صليل السيوف له وقع بأذني، أرجل الخيل تدنس ملابسي، أكاد أسمع آهات الموت، فحاولت التملُّص من هذا

الجنون، تراجعت بخطواتي للوراء السحيق، احتجزتني أحضان قديمة بمعطفها الأسود، وعكاز، فلول من شعر أبيض تتدثر بـ «باريه» وأنف كبير يحمل نظارة طبية، كدت أن أصرخ فزعا، صرعه ارتعادي للخلف، هممت بالتقاطه قبل الوقوع في بئر السقوط، استدرت، تمسكت بأطراف المعطف، انفتحت أمامي صفحات ملامحه، ما زلت أستجمع التراكيب، والقسمات، لكن الخطوط تهرول على قضبان مخيلتي، أهاتف نفسي بالمعقول أحيانا، وبالّا معقول أحيانا أخرى، بين الجنون وعقل الواقع أتقاذف... لا. ليس هو... هو... بل كأنه هو... تركت لوحته هناك بزمن القراءة على أغلفة الكتب، فتحت نافذة الوعي كي أُسائل نفسي: (ما الذي أتى به إلى هنا؟! هل عاد يجدد حبه من بائعة التذاكر؟! أجاء يكتب يوميات عجوز بشوارع باريس؟!) تتداعى الأسئلة على كل جدار حولي، ترتد إلى مسامعي مع صليل السيوف، وصهيل الخيل، وآهات الموت، علق غضب الدنيا بطرف عكازه، صوبه نحوي:

- كدت أن تصرعني يا...

- سيدي، اعذرني لم أقصد.

- ....

- سيدي، هل أنت...؟

- ليس ذنبي أنك لا تعرفني.

– ماذا أتى بك إلى هنا؟! وكيف خرجت من...؟!
– لك أن تسأل أهل الكهف.

أزاحني من أمامه، اتجه بخطواته الهادئة صوب اللوحة، دس يده في جيب المعطف، أخذ يتصفح اللوحة بحلم مُفتن يقدر مذاق اللون، صمت كل شيء من حولي، تجمد المتفرجون كتماثيل الشمع، استدار بنظره نحوي، أشار بسبابته التي استلها من جيبه نحو اللوحة، أصدر قهقهاته الرخيمة، كأنه يعزف على أوتار حنجرته بريشة كسيرة، أوقف جحافل قهقهاته المتواثبة، وجم وجهه في وجهي، إلا من شفتيه اللتين احتفظتا ببقايا من الضحكات، تركني خلفه أصافح الجنون تقدم نحو اللوحة، تداخل معها، قرع بعكازه رأس «نابليون العظيم»، أسقطه من غروره؛ ففر الحصان، الجنود، انقشع الغبار، وسحب البارود، امتطى حماره، أخرج من معطفه كتابًا بلون قلوبنا، رفعه لأعلى بيده اليمني، تجمدت اللوحة التي حملته بين ضلوعها، يعتلي حماره، يرقب التماثيل الشمعية من فوق السطور، يستظل بسماء صافية، قرص الشمس الساطع يتوسط بهاء اللوحة من فوق الـ«باريه»، يضع بظهره خلفيةً لأهرام الجيزة، يتصدرها تمثال أبي الهول بأنف سليم...



أصوات نعرفها

دق جرس الهاتف بمنزلنا.

تسابقت الأيدي لالتقاط السماعة – كنت الفائز – صوت رقيق اخترق مسامعي، تساءلت:

– من أنت؟

نظرت للجالسين، تلوت عليها اسمي، وانخراط متبادل في الصمت، خذلتني موسيقى انقطاع الخط (أكيد لست أنا المقصود)، جادت عليّ نفسي بالكلمات تصبها داخلي، التفَّتْ أصابعي بسماعة الهاتف، احتضنتها احتضان طفل صغير، مارت الأسئلة بوجداني:

– من تكون؟

– ماذا تريد؟

كثرت إفرازات الأحرف والعلامات، دارت الرحى برأسي، ألقى عليَّ الجالسون نفس السؤال، فكانت منّي اللاإجابة بالصمت الطويل، لم يعبأوا بالأمر، عادوا إلى نقر الكلمات بعيدًا عن الحدث، لكن عقلي رفض أن يكون بعيدًا، الرحى طحنت عظام الرأس بالفعل.

– من تكون؟

– ماذا تريد؟

توقفتْ الرحى لتأخذ قسطًا من الملل، هبط عقلي للجالسين، شاركهم نقر الكلمات، ازداد الاحتدام، اندمجت الأصوات، اخترق الجرس النبرات، هذه المرة جرس باب منزلنا الصغير، انتهى وقت الملل، عادت تدور، توحشت في الدوران، بدأت تهشم نتوءات الجمجمة، تسابقت الأيدي لفتح الباب، فاز أخي الصغير بالجولة، الكل يترقب... إلا اثنان من الجالسين اندمجا معًا في نقر الكلمات، ألقيت بناظري على أعتاب الباب، أسمع صوت تهشم العظام برأسي:

– من يكون؟

آه قد أخطأت السؤال أقصد:

– من تكون؟

– من تريد؟

نواظري مازالت عند الأعتاب تنتظر الإجابة، انفتح الباب، هه، إنه بائع جوّال، لم أهتم بما يبيع قدر اهتمامي بالشعور الذي غرسته أمي داخلي تجاههم وأنا صغير، حتى هذا الشعور، مر عبر جسدي سريعًا، شكرته قبل الانصراف، ذكّرني بأمي (سامحه الله) أعلمني انغلاق الباب ما قاله أخي للبائع، عاد ليأخذ حظه من نقر الكلمات، تعودت على صوت التروس الدائرة داخلي ونفس السؤال:

– من تكون؟

– من تريد؟

خفتت الأصوات مع الأضواء، وانزلاق بسيط نحو السكون، لحظات، ثم بدأ يوم جديد غيّر مسار الانزلاق، كان أخي أول من قصّ شريط نقر الكلمات، تهافت الأشخاص.

انتظرت الأماكن أصحابها على مأدبة الطعام، وحان اللقاء، اختلطت الكلمات بصوت طحن الأسنان، رنين الأطباق يتطاير هنا، وهنا، حتى ارتطم بجرس الهاتف، لم تتسابق الأيدي، الكل انشغل بالطعام، ففزتُ بالسّماعة بالتزكية، أمسكتها بيدي، أسندتها على راحة يدي الأخرى، صمتُّ قليلا، رفعتها نحو أذني، هتفت بعبارة استهلال المكالمات، إذا بصوتها قد عاد من جديد، لم تسألني من أنا بل رددت اسمي ملتهجة بالسؤال، أجبت وقد تعطّلت الرحى، لم أعد أسمع صوت التروس للحظات، لكنها لم تعد لتأخذ قسطًا جديدًا من الملل.

– نعم أنا.

ضحكة خفيفة أطلقتها، ثم أعقبت بالسؤال عن أحوالي، وأخباري، فأعددت الأسئلة، وهاجمتها بالسؤال:

– من أنت؟

ضحكتها الخفيفة أطلقتها ثانية، لم يصلني منها سوى ترجرج الأنفاس، ثم موسيقى التتر التليفونية تُنهي الاتصال، عاد السؤال:

— من تكون؟

التفت ناظرًا لمأدبة الطعام، لم يعد هناك أحد من الجالسين، الكل لم يعبأ بالأمر، غادروا كي يلحقوا بأماكنهم مجددًا في منظومة الطوابير، لكن السؤال جال وعادت التروس بالدوران.

— من تكون؟

هي تعرف من أكون، فقد سألتني عن أحوالي كأنها تعرفني عن قرب، تساءلتْ باسمي كأنها اعتادت على النطق به، الأفكار صارعت الأفكار، وقضت الأفكار على غيرها من الأفكار، ودق الجرس، لم يكن جرس انتهاء جولة المصارعة كما تظنون، إنه جرس منبه أخي الكبير يداعبه قبل موعد الاستيقاظ، لم أره منذ أمس، سمعت باب غرفته يزاحم الهواء، دلف إلى الصالة متلفعا بمنشفته قابضًا بيده مبعثرًا بها ما تبقى من الكرى عن جفونه، بدأ هو بنقر الكلمات بعد أن انكشف الستار سألني باندهاش عن بقائي، وتخلفي عن ركب منظومة الطوابير، نظرت للهاتف، أسقطت الكلمات باللاكلمات، وبعد انتظار سألني:

— هل سأل أحد عني أمس؟

قلت: (لا)

– ولا اليوم؟

قلت: (لا)

رفع كتفيه، أنزلهما، اتجه للداخل صوب دورة المياه، يجر خلفه صوت ارتطام نعله العتيق بأرض المنزل الخشبية، عاد السؤال:

– من تكون؟

تنهدت، ملأت رئتي بالهواء، اتجهت لغرفتي لالتقاط حقيبتي المملوءة بهموم الناس، أسرعت كي لا أتخلف عن الركب المنشود، عاد طابور الأجراس يشق جدران غرفتنا المستطيلة، اتجهت حيث تقبع الأصوات تحت الوسادة، هاتف أخي الخلوي كاد أن يمزقها بنغماته، لم أهتم بالأرقام الظاهرة، أنا ممن يكرهون لغة الأرقام، حملت الهاتف إليه، انتفض في يدي كالطير الذبيح، صوت زخات المياه تتقابل معي، اندمجت الأصوات مع صوت أخي المبلل بالمياه:

– رد على التليفون.

بحثت عن زر الاستقبال، رفعت الهاتف نحو أذني، قبل التساؤل صدمني الصوت، صوتها، نفس النبرات، نفس اللهجة، دارت الحرب داخلي بين الشك واليقين، ارتمت في الحديث ظنًّا منها أنني صاحب الهاتف، لم أسمع ما تقول، طغى صوت المعركة على الكلام، أخبرتها بأنني لست المقصود كما تظن، فكانت نفس الضحكة، سمعت صوت تحطم الآلات

في عقلي، تحرك لساني بالسؤال:

- أنت؟

أجابت بضحكتها التي ملأت أجواء الحديث:

- نعم أنا، ألا تعرفني؟

حركت رأسي المثقلة بصمت النفي، فألقت بالإجابة كي تغلق الآلات من زر التشغيل، كأنها رأت تحرك رأسي المنهك:

- أنا !!!

تفتحت جميع المسام، اتسعت الحدقات، سمعت ضحكات أعضاء جسدي، وقد سخرت من العقل المتخم بالأجراس، والأصوات، وهموم الناس، انطلق لساني بلا تردد:

- مَنْ ؟ أختي كوثر؟!!!

تهبط موسيقى التتر كي تنهي الاتصال.



اللعبة

الآن فقط مات الملك.

— سنبدأ لعبة جديدة سيدي.

فنجان القهوة يثقل الرقعة المخضبة بوجوه البشر، تجاوره سيجارة حمقاء تمد أنفها في قاع المنفضة، قداحة، لفافة خرائط، نظارة شمسية، وأشياء أخرى متناثرة على صفحات جريدة مهملة، أشرقت السماء بلون الليل، انفجرت مواقع النجوم بصبغة النيران، اللحظات باتت متأهبة لاحتواء المعركة القادمة، تجمعت أكُفُّهم بالقسم على أحلام القدر، خيط من شرر الطمع يمتد بين رؤوسهم؛ ليكتب لهم ميثاق الحرب: بأن أحرقوا الأشجار، اقتلوا كل النساء والأطفال، اهدموا المساجد والكنائس والديار، جففوا الآبار والعيون والأنهار... وأخيرًا الهدف: قتل الملك الأبيض، الملك الأسود وحده لابد وأن يعيش معتليًا عرشه فوق تلال الزمن، تحمله أعناق الضحايا ليخلد في طريق الحياة. عاش الملك... عاش الملك... ترديد...

- بدأت اللعبة...

تحركت الجنود السوداء للأمام، استعدت الجنود البيضاء لصد الهجوم، تداخلت الجحافل، امتزج البياض بالسواد، تساقطت عناقيد القنابل، أصابت جدران الطوابي الحصينة، الفلول البيضاء مازالت تقاوم، قفزت الأحصنة السوداء خلفها، توغلت بين الصفوف المتهالكة، الصهيل الأسود يرعد قلوب المتفرجين، دمرت كل الأسلحة القديمة، ارتعدت الفيلة البيضاء فارتشفت قذائفها الصغيرة، والأحصنة الأصيلة ركعت تحت أقدامهم، مازالت الدماء تهتك عيون البياض المنتشر؛ فطغى السواد على وجه المعركة، انتشرت الأخبار عن قتل الوزير الخائن، ومعه آلاف البشر، وأن الملك يحتضر في مخبئه، وأن نهرًا جديدًا ينبع من جروح الأبرياء.

- أغلق المذياع.

- ما أجمل سماع الموسيقى الصاخبة.

تأرجحت الحبال من ملايين المشانق، المتهمون ينتظرون الحكم بعد أن أحكمت حلقات الموت حول أعناقهم، صدر الحكم بإعدامهم رميًا بالرصاص، فتدلت أجسادهم المتعبة في الهواء... لملم القاضي أوراق قوانينه الرحيمة، وغادر المحكمة بعد أن أحرق كل شيء، وبقي الرماد يتطاير أمام أنوف المتفرجين... انتشرت نوبات العطس... يرحمهم الله... من ماتوا يتأرجحون بين السماء والأرض...

– أكمل اللعبة...

أعمدة الدخان تتصاعد من الطوابي البيضاء، تكومت جثث الضحايا خارج الساحة الشاسعة، الفراغ يكشف أسرار المعركة، اقتربت كل الأسلحة من مخبأ الملك المهزوم، الهزيمة ليست هي النهاية، تجمعت الفيلة السوداء، الأحصنة، الطائرات، الدبابات، الجنود، طوّقوا المنطقة، حاصروا الهواء بالشوارع، انكمشت المدينة البيضاء كلها على كومة من السواد، اقتربوا من الهدف، الموت هو الهدف، فجروا المخبأ بقنابل صنعت من قلوب مسمومة، اعتقلوا الملك... جرجروه بآلاف الجنود، قيدوا كل قطعة من جسده بأغلال من فولاذ أحمر، دفنوا وجهه في التراب، وعاد القاضي من جديد ليفترش أوراق القوانين قرأها عليه بهدوء سكين باردة، ثم أصدر الحكم بإطلاق سراحه بعد أن يتم إعدام جسده المتهدل رميًا بالرصاص...

– الآن فقط مات الملك.

– سنبدأ لعبة جديدة سيدي.

من خلف الصورة

أ

غيتار

بحصة الموسيقى اعتاد الجلوس في الخلف، كلما منحه المُدرس فرصة العزف على البيانو، أَجبره صوت أبيه الغليظ على التنازل لأحد الزملاء، واصل تفوقه العلمي إلى أن حصل على المركز الأول بالثانوية العامة، بعد حفل التكريم... استعد لأخذ صورة تذكارية بجوار الرئيس، اقترح عليه حمل غيتار كان بيد عازف فرقة الموسيقى، معللًا إضفاء الجمال على الصورة، استجاب للأمر، أمره لاقط الصور بأن يتطلع للكاميرا، التُقطت الصورة حينما كان يبحث عن وجه أبيه في الخلف.

٢

الحلوى الشهيرة

كان يجلس وحده في عموده الصغير بأطراف الصفحة الأخيرة، يرسم صوَرَه دون أن يراه أحد، لكن عيون شخوصه كانت ترى كل شيء من حوله، اليوم أهملوا إدراج توقيعه تحت رسومه، لم يعبأ بالأمر كثيرًا... ثم جاء اليوم التالي ليهدموا عموده المسكين بإعلان للحلوى الشهيرة، بعد أن تلقى قرارًا بالفصل، سار شاردًا يتأمل وجوه المارة، نسي جسده أسفل سيارة طائشة، فأعادت الجريدة نشر رسومه بالصفحة الأولى، تحت عنوان يحمل اسم تلك الحلوى الشهيرة.

ççç

٣

صورة وحيدة

أصرَّ أن يرسل خربشاته إلى كبرى الصحف، فكانت تلتهمها سلال المهملات في كل مرة، تفجرت فكرة برأسه من جبال اليأس، ذهب للحلاق لهندمة البياض المنتشر بين أعواد شعره، ارتدى حُلته الأنيقة، وضع نظارته الوقورة على أنفه، ثم نظرة طويلة في المرآة، همّ بإرسال الصورة مرفقًا الخربشات، فنُشرت الصورة وحدها.

سيرة كائن مائي

بين أحضان النيل والبحر ولد منزلنا، فاستلقت عليه ضفافي بشريط أخضر يعانق قلوب أسرتي الدافئة، نشأت بينهم في أرض تتنفس رائحة الخشب العنبري الذي يحمل الملامح المحفورة على جسد الرزق بورش النجارة الصغيرة، هاتفتني الطبيعة منذ لحظة وعيي من خلف غياهب القدرة الإلهية الواقعة عند حدود الشعرة الفاصلة بين العذب، والمالح، وبين الصخب، والهدوء، وبين الرمال، والطين؛ لأتعلم من هواجس البيئة ماهية التذوق، أقف على الخطوط الملونة للشمس السابحة بأطراف البحر الممتدة، أفرد كفي الصغير لأحجبها عن العالم الكبير؛ فأشعر بكياني المستمد من تلك القدرة، تشرق شمس أخرى تغزل حرفي الأول على قصاصات من الورق، أطيِّرها بالهواء لتعلق بأرجل النوارس المهاجرة للعالم الآخر، أؤمن دائمًا بأن هناك عالمًا آخر يكمن خلف حدود البحر الغائرة، جرفني إلى

البحث عن وجوه الصفحات بمحاولات تائهة بين خواطر النفس المشحونة بطاقات الكلمات المترجمة لبيئتي المائية، وكانت البداية لكلمات تتلاعب على سلالم بيوت الشعر، أرسمها على وجه أختي الصغيرة لأحدد معالم القمر، ثم أنطلق بها مع شعراء مدينتي إلى المدن والقرى المجاورة، لكني شعرت أن الطاقة الكامنة مازالت تختزل الكثير والكثير، وجدتني أنجذب بها نحو الشتاء ببرده القارس الذي يجمع الأسرة بأكملها، حول حكايات جدي -رحمه الله- فكنت أخرج من رحلة استمتاعي بجسر يربط حاضر كلماتي الحائرة بالماضي المسطور على جباه التاريخ.

غرفتي الصغيرة هي ملاذ أحلامي المخلوطة بحبر قلمي الأسود، ينتشر عبر أثير المذياع الخشبي؛ فأشارك أبناء مدينتي صفحاتهم الشهيرة، عشت مع «طاهر أبو فاشا» آلاف الليالي بقصور «شهريار»، تمنيت أن يتنازل لي عن «شهرزاد»، فأقطع رأس الديك لتستمر معي بلياليها الملاح، غصت مع «فاروق شوشة» بأحشاء لغتنا الجميلة حتى تحولت بحور الشعر بمجراها لتصب ببحر مدينتي دمياط، أرتمي على مكتبي بأطراف الغرفة، أجذب جواريره؛ لأحرمه من نومه العميق بركنه المميز جوار النافذة، أحتسي رشفات من قهوة الحبر، بفنجان من ورق، يشبه تمامًا قواربي الورقية التي تركتها تسبح منذ عشرات السنين تصارع خيالاتي الهائجة، أصبح أخي «د. أيمن» على حصاد ليلتي الماضية؛ فيمدني بمجاديف جديدة

لقاربي الخشبي؛ لأكمل سيري نحو الشاطئ المفعم بحكايات جديدة، أنهمها من طواجن أبي العسكرية المطبوخة بتجارب حرب الاستنزاف، وانتصارات «أكتوبر»، آكل من لحوم حكاياته اللذيذة، وأهرب من عظام أرقامه المدونة بدفاتر عمله بأحد البنوك، كم أمقت كل الأرقام، وكم أحب كل أحرف اللغة العربية، ما أجمل أحرفها، من الألف حتى الياء، أعشقها تلك اللغة التي شاركتني أحلامي، وواقعي، فكانت مصدرًا للثناء على من مدرسيها عبر مراحل تعليمي، الأستاذ «جمال عبد الواحد» اسم لا أنساه ما حييت، مدرس اللغة العربية العاشق الذي دفعني دفعًا نحو المواصلة، كانت الانطلاقة الأولى من هذه المرحلة، مرحلة الثانوية العامة، حملت المنهج لأحدد معالمه، فكانت القصة هي الطفلة الجديدة التي ولدت لتحمل كلماتي، والتي وثقتها مرحلة الجامعة حيث التخصص في اللغة العربية وآدابها، سرت أعانق مسرحيات «الحكيم»، وأرفع الكتب عن «الجاحظ»، وأستنشق رومانسية «عبد الحليم عبد الله»، أتنزه بأزقة «نجيب محفوظ»، ثم فتحت نافذة غرفتي على مصراعيها أمام رياح الغرب الآتية بأسرار «أجاثا كريستي»، وشخصيات «ديكنز»، وحب «ماركيز»، عبرت النافذة لأزيح الستار عن القمر الساجد في معابد المياه من حولي، يستدير معه قلمي بوجه حبيبتي الغائبة، ويتسلق جبال طموحاتي المنتظرة، ذابت المرحلة الجامعية على صفيح الواقع الساخن، فقفزت غفلتي من فراش

العالم الآخر على ضجيج عالم واحد فقط نعيشه، تتعلق به همومنا التي تنتظر كلماتنا لتخرج من كهف النسيان، إلى نور تتفتح عليه أعيننا، كانت «جريدة يوليو» هي المستقبل الأول للضيف القادم من جنات الياسمين، فعبرت الحواجز القائمة، أكتشف ما خلف المكاتب الفارهة، لأخرج رأس السلحفاة من مرقدها، لكن أصرَّت هواجسي الأولى ألا تتركني، لتلح على بالحكايات القديمة، عاتبتني غرفتي، وتعطل مذياعي، ليذكرني صمته بليالٍ قضيتها على همسات «البرنامج العام»، فانكمشت الخيارات أمامي لخيار العودة لطفلتي، أرسم بين سطورها شوارعنا الضيقة، وبحار الدموع المكتظة خلف أبوابنا المتهالكة، تنتظر لقمة عيش آتية دون موعد سابق، أو تجفف دماء أرض ابتلت بأجساد أبنائنا من أجل الحرية.

شاءت الأقدار أن أرتفع يومًا بالهواء، قرب أجنحة النوارس، وفوق أشرعة المراكب المسافرة، لأحط بقلمي على قلب تلك المدينة: «الكويت»، حمدت الله كثيرًا أن الكائن المائي لن يموت مختنقًا، أجدد أنفاسي من مياه الخليج كل يوم، وأُقرئُ بحر مدينتي السلام، أغازل الأمواج الآتية بعبق روائح الخشب، أشمها فأنتشي، أخط وجه طفلتي على رمال الشاطئ كل ليلة، حتى تجمدت دموعها فكانت «لوزات الجليد» مجموعتي القصصية الأولى الصادرة عن «مركز الحضارة العربية –القاهرة ٢٠٠٦–» التي احتفت بها جريدة «القبس» الكويتية، والتي حوت صفحاتها معظم قصص

المجموعة، ومازلت أرسم وجه طفلتي على رمال شاطئ الخليج لأبني أحرفي، فتواضعت أحلامي كثيرًا مع أحلام الشاعرة «سعدية مفرح»؛ فكنت أعكس هواجس غربتي على مرآتها المستلقية بصفحتها التي احتوتني، وإذا بي أستيقظ يومًا على شاردة من شوارد الشاعر «مدحت علام»، التي استقبلت نقوشي الباقية للمرة الأولى على صفحات جريدة «الرأي» الكويتية، وأشرقت معالمي الجديدة بين أحرف الشاعر «مهاب نصر» على صفحات جريدة «النهار»، وتمتد رحلة الدفء من العالم الافتراضي بالمنتديات الأدبية، إلى مقاهي الخليج العربي بصحبةٍ ترفرف حولها الكلمات المحلقة، لأرى مدينتي أجمل مدن العالم، وأرى زوجتي أجمل نساء الكون، وها أنا الآن أرسم وجه طفلتي «حنين» على الرمال، لتعانق طفلة قلمي القادم إليها، لتستقبلني أمي بأحضان الوطن في ميناء السفينة العائدة، وعلى متنها الكائن المائي.

الكاتب في سطور

- قاص مصري من مواليد محافظة دمياط ،عام ١٩٧٧.
- تخرج في كلية الآداب والتربية، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة المنصورة.
- عمل صحفياً بجريدة يوليو الإقليمية عام ١٩٩٩.
- شارك في تأسيس مجلة صوت الطلاب الدورية عام ١٩٩٧ .
- شارك في تأسيس موقع أدباء دوت كم www.odbaa.com.
- نشرت أعماله في العديد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية المتخصصة.

صدر له :

- لوزات الجليد : مجموعة قصصية. مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٦.
- رائحة الخشب : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٨.

البريد الإلكتروني:

blkbohy@hotmail.com

فهرس


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net